الفصل الثاني

الفوضى فى العصور القديمة

(بذور العداوة)

عندما نبدأ بسرد تاريخى للفوضى فى العصر القديم فقد رأيت أن أقسمه لمرحلتين مهمتين يفصل بينهما حادث أثر فى مسار البشرية كلها على مدار التاريخ، هذا الحادث هو طوفان نوح.

فالمرحلتان إذا هما مرحلة ما قبل طوفان نوح و مرحلة ما بعد طوفان نوح.

ولكن لماذا طوفان نوح بالذات؟

ذُكرت قصة طوفان نوح تقريبا فى مختلف أساطير العالم القديم (مصر الفرعونية، بابل، الإغريق، الهند، الصين وحتى الأزتك و المايا ورد ذكرها لديهم) مع اختلاف الحبكات الدرامية تبعا لكل ثقافة، ولكن ظل أصل

obeikandl.com

القصة واحدا (الرجل الصالح الذى أنقذته السماء من فناء البشرية بسفينة نجته وسط أمواج الطوفان المغرقة العاتية).

هذا السرد شبه الموحد لنفس القصة بالإضافة بالتأكيد لسردها فى الديانات السماوية الثلاث و آراء عدد من علماء الآثار و الحفريات الّذين عثروا على مخطوطات بابلية قديمة فى مدينة أور يعود عمرها إلى 7500 عام قبل الميلاد تتحدث عن حادث الطوفان يدل على شيء من اثنين:

-إما أن هذا الحادث كان حادثا عالميا طغى فيه الماء على كل بقاع اليابسة و أغرقها بما عليها و من عليها من بشر و كائنات حية (و هو احتمال قد يكون بعيدا نسبة إلى أن كل الدلائل و المخطوطات المعثور عليها و تتكلم عن حادثة الطوفان تتكلم عن منطقة تشمل اليوم منطقة الشرق الأوسط و شرق حوض البحر الأبيض المتوسط).

-إذا فالاحتمال الثانى أن هذا الحادث ضرب التمركز الوحيد للبشر فى الكرة الأرضية فى هذا الوقت، و قضى على كل الجماعة البشرية و حضارتهم الموجودة فى حينها، و فرق البقية الباقية إلى شراذم و مجموعات تفرقت فى أرجاء الكرة الأرضية، و كافحت من أجل إعادة بناء نظامها فى الأماكن الجديدة التى استوطنوها من نقطة الصفر بهدف الوصول إلى الحضارة المفقودة.

ولكن ظل بداخلهم حادث الطوفان موروثًا ورثوه لكل من أتى بعدهم على اختلافهم وتنوعهم، والآن دعونا نعود بذاكرتنا إلى الماضى السحيق، ونبدأ بطرح مفهوم الفوضى فى العصر القديم بمرحلتيه.

الجزء الأول: حقبة ما قبل الطوفان

تبدأ هذه الحقبة التاريخية منذ بداية ظهور آدم على الأرض منذ زمن لا يستطيع أحد على وجه الدقة تحديده، كل ما نعرفه عن هذه الحقبة ورد لنا من خلال الكتب السماوية على اختلاف السرد القصصى، والذى اتفق جميعا على هبوط آدم من الجنة للأرض نظرًا لمخالفته الأمر الإلهى بعدم الأكل من الشجرة.

تميزت الفترة الأولى من وجود آدم على الأرض بالسعى لإرضاء الله بكافة الطرق عن طريق اتباع المعيار الإلهى لبناء النظام على الأرض بمنتهى الدقة والحرفية مستغلا الهبات التى أنعم الله بها على آدم من معرفته لأسماء كل شيء على الأرض وطريقة استخدامه الاستخدام الأمثل تبعا للأمر الإلهى بالاستخلاف والإعمار، وهو ما قد نطلق عليه فى عصرنا الحديث بالمعرفة الكاملة التى نسعى إليها إلى الآن.

ولكن لأن الإنسان أُهبِط إلى الأرض وفى شخصيته بذرتا النظام والفوضى معا، فكما تهيأت لبذرة النظام النمو فى ضوء التزام آدم بإرضاء المعيار الإلهى، تهيأت أيضا لبذرة الفوضى أرضية النمو فى نفوس أحد أبنائه الّذين لم يعاصروا حادثة الإهباط ولم يتولد عندهم التزام أبيهم الكافى بمعايير النظام فكان أن حدث أول خرق للنظام.

تخبرنا هنا الكتب السماوية عن أول حادث خرق للنظام كان بدافع الغيرة و الحسد بين ابنى آدم قابيل و هابيل و الذى كانت نتيجته أول جريمة قتل فى التاريخ و هروب قابيل من مظلة نظام آدم.

لا ندرى على وجه الدقة ماذا حدث بعد ذلك، ولكن القرآن على وجه الخصوص يخبرنا بوجود ما يعرف بحقبة الجاهلية الأولى، و هى على أرجح الأقوال الحقبة التى أعقبت هروب قابيل من تحت مظلة نظام آدم إلى فترة طوفان نوح.

تميزت هذه الحقبة مع تمركزها فى بقعة محددة من الأرض على الأرجح لم تكن تتعدى منطقة الشرق الأوسط على ظهور مبدأ الفوضى الخالصة و هو أسوأ أنواع الفوضى.

الفوضى الخالصة: هى الفوضى لمجرد الفوضى ليس بهدف إسقاط أنظمة، و إنما يمكن أن يقال أنها كانت نوعا من ثورة البشر على المعايير

الإلهية الحاكمة للكون، ويبدو أن البشر فى هذه الحقبة تمكنوا من استخدام سر المعرفة البشرية الذى وضعه الله فى آدم بشكل أدى بهم إلى تقدم وحضارة كبيرة لا نعرف عنها شيئا بالطبع، وأدى ذلك إلى الاغترار بقدرتهم ونحا بهم نحو طريق مخالفة كل معيار للنظام المتبع من قبل آدم و العمل عكسه (طرح كارل ماركس مبدأ مشابها فى الشيوعية الحديثة وهو الثورة الدائمة) فكان مثلث الفوضى كالآتى:

-الهدف: المخالفة الخالصة لكل معيار اتبعه آدم فى نظامه، والتمرد عليه بشكل كامل (بدءا من الشرك بالله مرورا بالموبقات التى نهى آدم أبناءه عنها).

-المستفيد: من الصعب تحديد نخبة مستفيدة فى تلك المرحلة، بل الأرجح القول أنها كانت ثورة عامة أو غرور عام كان المستفيد منه كل متمرد يسعى إلى اتباع أهواءه وغرائزه إلى الحد الأقصى.

-الخطأ: وقع جل العرق البشرى فى خطأ الغرور وافتراض أن مبدأ معرفتهم بأسرار البشرية قد يمكنهم من القيام بالتمرد على النظام الكونى بشكل كامل وسافر، وأن مبدأ الفوضى من أجل المتعة مع غياب الأوامر و النواهى هو حق مكتسب لهم.

مع اكتمال مثلث الفوضى لم تتبقى إلا الشرارة التى أشعلت فتيل انهيار النظام البشرى، وكانت هذه الشرارة هو بعثة نوح كنبى مرسل ليحذر من أنه إذا لم يتعافى النظام البشرى من هذه الفوضى فسيكون مصيره الانهيار وقد كان.

بسم الله الرحمن الرحيم (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم و أطغى)....صدق الله العظيم (النجم، 52)

الجزء الثانى: حقبة ما بعد الطوفان

لم يكن طوفان نوح مجرد تدمير لأماكن معيشة العرق البشرى فقط، بل كان حدثًا كونيًا كان له عظيم الأثر فى العرق البشرى الباقى بعد ذلك، حيث إنه قضى على فكرة الجامعية البشرية وفرق البشر شراذم ومجموعات، و قضت على سر المعرفة البشرية تقريبا بشكل كامل.

أنشأ الطوفان ما قد أسميه الشتات البشرى الأول فى كل بقعة فى الأرض و أجبرهم على السعى من نقطة الصفر للبحث عن كيفية الاستفادة من موارد الأرض ومحاولة البحث عن كيفية إقامة النظام المثالى الخاص بآدم مرة ثانية.

ولكن يبدو أن الطوفان لم يؤثر فقط على المقدرة التقنية للبشرية فى تسخير موارد الأرض، ولكنه أثر أيضا على قدراتهم العقلية فى معرفة أسرار الكون فسعوا إلى إنشاء رموز و أشكال تقربهم لفهم سر القوى الخفية، و تعظيم بعضها تبعا لقوة تأثيرها عليهم لحد رفعهم إلى درجة التقديس و الألوهية لمحاولة ملئ الفراغ الروحى.

كانت مرحلة الشتات البشرى الأول فى الأرض هى نقطة الانطلاق لإعادة بناء النظم البشرية على تنوعها المكانى و الزمانى تبعا للقدرة البشرية عى تطويع موارد الأرض، وتبعا لمدى التوافق بين البشر على التعاون للتغلب على الصعوبات.

فكانت المرحلة الأولى بعد الطوفان مرحلة تميزت بسعى حثيث لبناء النظام مرة أخرى، فمن جماعات تصطاد معا و ترعى معا حتى تهيأت لجماعات معينة فى مواطن جغرافية معينة الظروف للاستقرار و اتخاذ حرفة الزراعة و الاستقرار فى مجتمعات أكبر فعرف تأسيس القرى و المدن.

و مع تأسيس المدن بدأت تظهر الحاجة للحفاظ على الموارد و ضمان استمراريتها و الرغبة فى تنميتها و زيادتها، و بالتالى ظهرت فكرة التنافس بين المدن للسيطرة على الموارد ما أدى إلى الصدام.

كانت السمة الرئيسية المميزة للفوضى فى مرحلة إعادة بناء المدن تتميز بالصدام العسكرى المباشر بين هذه المدن بغية سيطرة مدينة على موارد مدينة أخرى و توسيع حيز سيطرتها، فكانت الحرب هى المرادف الوحيد لمعنى الفوضى (بمعنى آخر إن أردت فرض السيطرة و ضمان زيادة الموارد فعليك أن تتبع مذهب صدام الأقوياء و إلا فلتكن تابعا).

ظل هذا الأسلوب السائد حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حين تبلورت تجمعات المدن فى منطقتين جغرافيتين عن أقدم إمبراطوريتين فى التاريخ المعروف (الإمبراطورية الفرعونية فى مصر و العراقية فى بلاد ما بين النهرين). ولنسبح مع تيار الزمن إلى الوراء.

الإمبراطورية الفرعونية: دولة أسقطها صانعيها

لم يعرف التاريخ دولة ثابتة الحدود جغرافيا حافظت على وحدة رباطها الجغرافى و السياسى و الاجتماعى على مدار أكثر من ثلاثة آلاف و خمسمائة عام مثلما فعلت الإمبراطورية الفرعونية.

و إن المتأمل للشأن المصرى ليستطيع أن يعرف على وجه اليقين لماذا قال المؤرخ الإغريقى هيرودوت كلمته الشهيرة عن مصر (إن مصر هبة النيل).

إن هذا السائل السحرى الذى يمرق جاريا من جنوب مصر إلى شمالها قد أجبر المجتمعات التى قامت على ضفاف هذا النيل على التعاون لتنظيم جريانه، و السيطرة على فيضانه، و تنمية الأراضى على ضفافه بشكل جعل من وحدة المدن و الأقاليم القائمة على شواطئه مسألة وقت ليس أكثر.

فكما أن النيل واحد فى مساره و جريانه و خامته أصبح على المصريين القدماء أن يتطبعوا بطبعه فى مسألة الوحدة فى بادئ الأمر، فكانت النتيجة أن توحدت الأقاليم التى نمت على ضفافه سريعا و انصهرت بشكل يسير فى إقليمين كبيرين هما مصر العليا أو مملكة الجنوب، و مصر السفلى أو مملكة الشمال.

****

مرحلة الوحدة :

كان من الطبيعى بعد تكون هذين الكيانين أن تتجه طموحات البشر (أو الحكام) فى هذه المنطقة إلى السيطرة على كامل ثروات القطر المصرى من بلاد النوبة فى الجنوب إلى البحر المتوسط فى الشمال، و توحيدهما تحت كيان واحد قوى، هذا الطموح (أو الطمع) أدى إلى استدعاء روح الصدام بين المملكتين الحاكمتين، و محاولة كل طرف إلى خلق حالة الفوضى لدى

الطرف الآخر، وكانت الطريقة التقليدية هى أقصر الطرق، وهى الصدام العسكرى المباشر بغية كسر شوكة الطرف الآخر.

وفى عام 3200 ق.م. نجح أحد ملوك مصر العليا ويدعى (نعرمر) فى كسر شوكة مملكة الشمال والاستيلاء عليها، وأصبح يعرف بملك الإقليمين و رب الأرضين.

وأى كان نعرمر هذا هو مينا موحد القطرين المعروف فإن الشاهد أن عام 3200 ق.م. كان هو عام الوحدة بالنسبة للمصريين فى الشمال والجنوب.

نظر المصريين إلى الملك الموحد للقطرين على أنه الشخصية السوبرمان، فهو البطل الخارق الأسطورى الذى قضى على التشرذم، واستجلب الوحدة إلى أرض وادى النيل، ورد عنهم المتربصين من بدو الصحارى فى ذلك الوقت، وقهر مملكة النوبة وضمها إلى السيادة المصرية.

وكان هو البانى لقلعة منف العتيدة التى ربطت بين الجنوب والشمال و سهلت مراقبة شطرى القطر المصرى بشكل متوازن.

لكل هذه الأسباب افتتن المصريين بشخصية الملك فنزهوه عن كل خطأ و نقص، ورفعوا منزلته إلى مرتبة الألوهية، فهو رب الأرض وسيدها المطلق بما عليها ومن عليها، وهو صاحب الحق المطلق فى التصرف فى رقاب أهل مصر كيفما يشاء؛ لأنه شخصية مقدسة لا يستطيع أحد أبدا المساس به

أو انتقاد سياسته، بل أنهم زادوا على ذلك فاعتمدوا عليه بشكل كامل فى تدبير النظام الإدارى للدولة من أصغر ركن إلى أكبر ركن فيها، و الاعتماد على أن نظرته فى اختيار جهازه المعاون هى نظرة صائبة دائما مهما شابها من قصور.

و نتيجة لهذه النظرة المقدسة للملك كان المصريون القدماء هم أول من وضع نظرية الشخص الإله أو ما يعرف حديثا بنظرية:

(ONE MAN SHOW / سيطرة الفرد الواحد)

ما هى نظرية سيطرة الفرد الواحد؟

تقوم نظرية الفرد الواحد على مبدأ بسيط.. تواجد فرد يتمتع بصلاحيات مطلقة فى إدارة مؤسسة أو نظام، واعتباره نقطة الارتكاز و حجر الأساس فى هذا النظام اعتمادا على قدرات الشخص الذاتية فى إدارة النظام، فكل المعلومات و الأوامر و الخطط تخرج من هذا الشخص، وكل النتائج و مخرجات العمليات الإدارية تصب عنده، و هو الشخص الوحيد القادر على إصدار القرارات و تسيير مجريات الأمور فى النظام.

****

مراحل ارتفاع و انحدار الإمبراطورية الفرعونية:

الارتفاع الأول: عصر التوحيد و الدولة القديمة (من 3200 ق.م.-2280 ق.م).

يمثل هذا العصر المثل المصرى الدارج (الغربال الجديد له شدة).. ففى بداية هذا العصر كان الملوك أقوياء الشخصية، ذوى بصيرة نافذة فى اختيار الرجال من موظفى الجهاز الإدارى المعاون أو القادة أو الوزراء أو غير ذلك، وكان الهدف الرئيسى هو الارتفاع باستغلال موارد الدولة للحد الأقصى بهدف الوصول لحياة الرفاهة المرجوة من المواطن.

وكانت النتيجة الطبيعية لحسن الاختيار هو الارتقاء بكافة موارد الدولة من زراعة، وصناعة، وتجارة، وتعدين، وتدفقت الثروات على خزائن الدولة بشكل يثير لعاب القاصى و الدانى.

ومع غياب الأعداء الخارجيين فى هذا الوقت إلا من قبائل ضعيفة فى مواجهة قوة الدولة فى ذلك الوقت لم يكن هناك من طامعين فى هذه الثروات إلا الحاشية المحيطة بسيد الأرض المطلق الّذين أدارت حجم الثروات رؤوسهم.

ونسأل هل على هذا الأساس ومع توفر الدافع و المستفيد هل كانت الفوضى سريعة الحدوث فى مصر الفرعونية؟

فى الواقع لقد استغرقت أولى ملامح الفوضى المتمثلة فى إسقاط رأس الدولة أو الملك، و إقامة ملك آخر مكانه (وليس كما جرت العادة من أن يخلف الملك وريثه) ما يقرب من سبعة قرون كاملة و ذلك عندما قام كبير كهنة معبد هليوبوليس أوسركاف بإسقاط حكم الملك جدف بتاح و تنصيب نفسه فرعونا مكانه، فكان هذا أول خرق للانتقال السلمى للعرش منذ عصر توحيد مصر.

فمن يتتبع التسلسل التاريخى للأحداث يجد كما ذكرنا سابقا أن النظام كان يعتمد بشكل كامل على قوة الفرد المطلق أو شخصية السوبرمان المتمثلة فى الفرعون، فإن كان قويا و مسيطرا بما يكفى على رجال دولته، فإنهم يضمنون الحصول على جزء من الثروة، ولكن بإذنه فقط ولا يطمعون فى أكبر من ذلك (وهم مع ذلك يمارسون أنواعا مختلفة من غطرسة السلطة على من هم أقل منهم منزلة، فالكهنة والوزراء وقادة الجيش يمارسون طغيانهم على الموظفين والتجار.. والموظفون والتجار يمارسون سلطانهم فى جباية الضرائب على الفلاحين البسطاء ويثرون من ورائهم عن طريق الرشاوى واستغلال السلطة، وذلك كله تحت رعاية الفرعون القوى، فلا يوجد أحد فيمن هو دونه يستطيع أن يرفع نظره إلى العرش مادام الفرعون قويا).

كل هذا كان يتم برضا متبادل بين شعب ارتضى أن يؤله ملكا و بين ملك ارتضى أن يكون إلها (نضرب مثال على ذلك برسائل الفلاح الفصيح التسعة إلى الفرعون و التى ظل فيها يتعامل مع الفرعون على أنه إله و أنه الفلاح البسيط يدعوه لرفع المظلمة عنه، و أخذ الفرعون دور الإله فبدلا من رفع المظلمة فى وقتها و ساعتها تركه يرسل مظالمه يوم بعد يوم بدعوى الإعجاب بفصاحته حتى قرر أخيرا أن يحن عليه و ينصفه)

فنحن هنا أمام حالة من الانحراف النفسى المتبادل، اتخذت دور الموروث العقائدى عند كافة المصريين القدماء و أصبحت بمثابة الشفرة السرية للسيطرة عليهم.

كان هذا بالضبط ما قام به أوسركاف، فمع ضعف قبضة الفرعون و فقدانه السيطرة على مؤسسات دولته و بداية الانفلات نسج أوسركاف قصة يبرر بها إسقاطه الملك الإله من عرشه بدون أن يثير حنق المصريين، و هى قصة تنبؤ ع له و هو طفل صغير بأنه سيكون فرعونا

و رعاية الرب ات له، فكان أوسركاف هنا أول واضع لنظرية الحكم بالحق الإلهى فى التاريخ المعروف، و نجح بذلك فى احتواء الفوضى، و تخفيفها لدرجة الاضطراب المحدود. و لكنه فى نفس الوقت كان هذا أول تحذير بوجود خطأ فى نظام الدولة.

ولكن مع الأسف لم يستوعب المصريون الدرس واستمروا على النظام المعيب حتى حدوث أول فوضى شاملة عقب انهيار الأسرة السادسة بنفس طريقة انهيار الأسرة الرابعة.

****

الفوضى الشاملة الأولى (2181-2055ق.م)

وتعرف بعصر الاضمحلال الأول، والتى استمرت من الأسرة السابعة و حتى الأسرة الحادية عشرة وفيها تكاملت أركان مثلث الفوضى على النحو التالى:

-الهدف: ظل كما هو وهو السيطرة على أكبر قدر ممكن من الثروات، وزاد على ذلك تأمين حق الانتقال الوراثى للوظائف والمناصب.

-المستفيد: كانت النخبة الحاكمة من النبلاء وحكام الأقاليم وكهنة المعبد وحتى كبار الموظفين هم أكثر الفئات المستفيدة من حالة الفوضى، بل وقد برزت رغبة كل حاكم إقليم فى الانفصال بكيانه مستقلا عن باقى الدولة، فعادت مصر بذلك لعهد ما قبل التوحيد.

-الخطأ: أصبح استشراء الفساد فى مفاصل الدولة مع ضعف الركن الرئيسى (أى الملك الإله) أمرا غير قابل للمعالجة، وكان لابد من مسح

النظام، وإعادة تكوينه من جديد وكانت هذه أول حرب أهلية عرفها المصريون بعد التوحيد.

وكالعادة فى تلك العصور ظل الناس فى بحثهم عن البطل الأوحد أو شخصية السوبرمان، حتى عثروا على ضالتهم فى الملك أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، والذى تمكن من الاستيلاء على الحكم، و إعادة الترتيب والتنظيم لمصر مرة ثانية.

<u>الدولة الوسطى وإعادة بناء النظام (2055-1778 ق.م.):</u>

ساهمت أحداث الفوضى الأولى فى قيام ملوك هذه الأسرة بعمل إعادة هيكلة فى النظام الإدارى، وخاصة بعد محاولات اغتيال امنمحات الأول المتكررة (والتى نجحت إحداها فى النهاية) فقام ملوك هذه الدولة بتقليص أدوارالعديد من النبلاء، وإنشاء الطبقة الوسطى بكل ما فيها ومن فيها من حرفيين، وصغارموظفين، وقادة صف ثانى، ولكن ظل العيب الأساسى قائما وهى مركزية الدولة فى يد الملك الإله حيث إن المصريين أبوا إلا أن يؤلهوا الشخص الذى أعاد توحيدهم، وقبلها هو فعادت الشفرة السرية إلى العمل، ولكن مع عودة الثروات للتدفق وانتفاء أسباب الخوف عادت النفوس الطامعة مرة ثانية للتسلط، وإساءة استخدام السلطة و الثروات، فعادت الفوضى من جديد بنفس الشكل السابق مع انتهاء عصر

الأسرة الثانية عشرة، ولمدة قاربت على ثلاثة قرون ولكن كانت هذه المرة أسوأ من سابقتها.

****

الفوضى الشاملة الثانية (1778-1570 ق.م):

وتعرف أيضا بعصر الاضمحلال الثانى، وكانت بدايته كفوضى داخلية مع عهد الأسرة الثالثة عشرة، ولكن مع تغير المسرح الجغرافى حول مصر بدأ تظهر أطماع خارجية قوية تهدد الأمن الداخلى المصرى فى ذلك الوقت.

فحتى هذا الوقت كانت الدولة الفرعونية محصورة داخل حدودها المعروفة ومحمية بصحاريها الشرقية والغربية، وكانت مستعصية حتى ذلك الوقت على البدو الرحالة فى أن يجتازوا هذه الحدود الصعبة حتى يصلوا للشريان الأخضر النابض بالحياة.

ولكن يبدو أن انغلاق هذه الحدود جعل المصريين مع جمود نظريتهم حول الملك الإله يهملون جوانب أخرى من نظامهم الغدارى، وكان من أهمها تطوير الجيش ليواكب التطور الحادث خارج القطر المصرى.

ولكن كما ذكرنا طغت عزلة الحدود على العقول، فغلفتها بنوع آخر من العزلة التقنية فما تنبه المصريون من فوضتهم إلا وكانوا قد فقدوا مصر السفلى والوسطى من أيديهم لحساب قبائل الهكسوس القادمة من

فينيقيا (الشام الآن)، راكبون على الخيل و العجلات الحربية و هى نوع متطور من أسلحة القتال فى وقتها فلم يبق فى أيديهم إلا مصر العليا مهد توحيد مصر، ولم يكن هناك من بد من خوض حرب التحرير لإعادة التوحيد للمرة الثالثة.

و استغرق ذلك قرنين كاملين حتى تمكن المصريون من تطوير أساليب قتالهم لمواكبة أعدائهم و دحرهم فى القتال حين طردهم أحمس الأول من أواريس عاصمة ملكهم فى مصر (شرق الدلتا)، وسحقهم تماما عند حصن شاروهين فى فلسطين، وكان هذا أول خروج عسكرى مصرى خارج الحدود المعروفة.

****

<u>الدولة الحديثة و بداية النهاية(1570-1070 ق.م).</u>

مع طرد الهكسوس من مصر وظهور بطل خارق جديد أمام المصريين بدأت الدولة الفرعونية فى التعافى من جديد، و إعادة بناء النظام للمرة الثالثة.

ولكن يبدو أن طبيعة الشيفرة المستعصية لدى المصريين القدماء أبت إلا أن تقوم بعملية ترقيع للنظام، مثلما حدث فى الدولة الوسطى مع بقاء قلب النظام واحد فى كل الحالات (نظام الملك الإله).

ففى هذه المرحلة اكتشف المصريون ضرورة وجود جيش قوى يعبر ما خلف الحدود ليؤمن حدود الدولة الأم، وليس هناك مانع من فرض سيطرته على موارد جديدة فى البلاد المفتوحة من جيوش الفراعنة.

كما عزز دور كهنة آمون الذى لعبوه فى حرب التحرير ضد الهكسوس من شحذ للهمم، ورفع الروح المعنوية للقتال تحت راية آمون (الذى كان من صغار الآلهة فى الدولة القديمة، والوسطى) عزز ذلك من سلطانهم بشكل كبير فأصبحوا من هيئة صناع قرار الفرعون بشكل كامل.

نتيجة لهذا الترقيع ظهر فى الدولة الحديثة تضخم للسلطة العسكرية و الدينية على حساب باقى السلطات مع بقائهما بالطبع فى حالة توازن، (ولا نقول فى درجة أقل) مع سلطة الفرعون الإله.

وظل هذا الحال على تلك الكيفية زمن الأسرة الثامنة عشرة حتى وفاة الفرعون أمنحتب الثالث، وفى تلك الفترة تعرضت الدولة الفرعونية لهزة عنيفة نتيجة فوضى من نوع مختلف.

****

<u>إخناتون و الثورة الدينية:</u>

مع تولى أمنحتب الرابع لسدة الحكم فى مصر بدأت سماء السلطة فى مصر ترغى وتزبد وتتلبد بسحب الفوضى وكان لهذا أسبابه.

فالفرعون المصرى أراد أن يقوم بإجراء جذرى شامل لمراجعة النظام فى مصر، بمعنى آخر أراد أن يضرب قلب المشكلة.

فقد قام أمنحتب الرابع بإعادة صياغة للصورة الإلهية للآلهة و الفراعين على حد سواء، فحاول أن يلغى الصورة التعددية للآلهة المحلية و الحاكمة ويوحدها جميعا فى رمزواحد (رمزله بقرص الشمس و أسماه آتون).

و أما بالنسبة للفراعين فقد ارتأى أمنحتب الرابع (إخناتون) إنزالهم من سماء الإلهية ووضعهم فى محلهم الطبيعى على أنهم بشر. و إن كنت بشر فإن رأيك قابل للصواب و الخطأ و من الأفضل لك أن تأخذ بالمشورة و تهيئ لحياة تعاونية يشارك فيها المجتمع المصرى بكامله ولا يأخذ برأى الفرعون فقط.

وبدأ إخناتون فى تنفيذ خطته بكل قوة وقسوة، فطمس معالم معابد آمون، و قلص صلاحيات الكهنة بشكل كبير، و نقل عاصمة ملكه من طيبة إلى المدينة الجديدة أخيتاتون (تل العمارنة الآن).

ويبدو أن إخناتون ركز على هذا الشق بشكل كبير لدرجة أنه قد يكون أهمل أنه من المهم من أجل إصلاح نظام عامل عليك ألا توقف عملياته بشكل كامل، و أن تبقى بشكل متوازن حتى لا يضطرب النظام.

كما أغفل إخناتون الموروث العقائدى فى نفوس المصريين على مدار ما يقرب من ألفي عام الذى يحتاج لتعديله إلى وقت و مجهود.

كانت نتيجة التركيز على الشق الدينى الجديد مع إهمال باقى نواحى الحياة فى مصر فضلا عن رفض القادة العسكريين وكهنة آمون لهذه الإجراءات التى رأوها حرمانا من حقوق شرعية لهم كل هذا أدى إلى حدوث فوضى مزلزلة فى كيان الدولة الفرعونية.

فكما يقوم جسم برفض عضو مزروع حديثا فى الجسد حتى ولو كان فى هذا العضو نجاة الجسد كله فقد لفظت الدولة الفرعونية بسُلطاتها و مواطنيها فكرة إخناتون، و انهارت الفكرة بشكل تام بمجرد وفاة الفرعون الذى تواكب مع انفلات أمنى داخلى و فقدان الإمبراطورية لممتلكات خاصة بها فى فينيقيا لحساب الحيثيين و البابليين فى هذا الوقت.

كانت هذه النوعية من الفوضى رسالة لمن يحاول أن يغير النظام فى مصر القديمة أنه إذا أردتَ أن تحظى بالقبول فعليك بشيء من اثنين: إما أن تمتلك كل السلطات و تمتلك من القوة ما يمكنك من فرض فكرتك بشكل قسرى كامل على القاعدة العريضة (و تبين فشل هذه الفكرة مع من أتوا بعد ذلك)، أو أن تقوم بعملية تغيير بطيئة تدريجية فى قلب القاعدة العريضة حتى تقوم هى بنفسها بإصلاح النظام المعيب بالشكل الملائم لمعايير الإله الحاكمة.

الخلاصة من هذه التجربة أن فشلت قفزة الإنسان فى العودة لمعيار نظام آدم مرة أخرى.

و مع العودة لنظام حكم الملك الإله مع عهد الفرعون حور محب (وهو الذى كان قائدا للجيش و تآمر مع آخرين على قتل الفرعون الضعيف توت عنخ آمون و تولى الحكم من بعده).

عادت الدولة الفرعونية للعمل من جديد و تصادمت مرات عدة عسكريا مع الحيثيين لاستعادة الأملاك المهدورة، ولكن تبين فى هذه المرحلة قوة السلطتين العسكرية و الدينية فى تسيير دفة الأمور فى الدولة حتى مع وجود فرعون قوى مثل رمسيس الثانى و سيتى الأول و مرنبتاح.

ولكن النظام الذى أثقل بالعيوب و الجمود، و مع تغير الساحة من حول الدولة الفرعونية، و بروز قوى أخرى إقليمية تستطيع عبور حدود الدولة، لم يلبث النظام أن بدأ بالتصدع مع انهيار الأسرة العشرين، وعمت الفوضى فى البلاد داخليا بشكل يصعب السيطرة عليه، فوقعت أسيرة للاحتلال الأشورى القادم من حضارة بين النهرين المنافسة فى بداية الأمر.

و حتى مع محاولة الأسرة السادسة و العشرين (أبسماتيك الأول) فى إعادة الوحدة، فقد كانت محاولة شكلية، نجح فيها فى طرد الأشوريين باستخدام جيش مختلط من المرتزقة الإغريق مع بعض المصريين و قد هزم هذا

الجيش بمجرد أن حاول ولى عهده نخاو الاصدام بقوة البابليين فى الشام و عاد أدراجه سريعا.

و من بعدها أعلن النظام الفرعونى دخوله فى غيبوبة مطلقة، أوكما يطلق عليه الأطباء (الموت الإكلينيكى) منتظرا رصاصة الرحمة من كل محتل غاصب طمع فى أرض الفراعنة، فكان أن هوت الدولة تحت سلطان الفرس الّذين ابتلعوا أقدم حضارتين نشأتا فى التاريخ إيذانا ببدء مرحلة جديدة من الصراع فى الأرض.

الخلاصة: الدولة الفرعونية كانت بإمكانها النشوء و الاستمرار لو أنها عالجت عيوب نظامها فى وقت مبكر، ولكن استمرار الخطأ مع وجود نخبة داخلية جشعة، و مواطن مستكين يرضى بوقوع الخطأ اعتقادا منه أن هذا أمر إلهى، و أعداء متربصون طامعين فى الثروات، كل هذا أدى لانهيار أطول حضارة مستمرة عرفها التاريخ المعروف، فكانت الإمبراطورية التى أسقطها صانعيها.

ولخص الله سبحانه وتعالى حال هذا النظام كالتالى:
(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) صدق الله العظيم (الزخرف، 51-54)

****

<u>فى الهلال الخصيب: الأقوى يسيطر و الفوضى هى القاعدة</u>

يطلق مصطلح الهلال الخصيب على المنطقة التى تشمل اليوم بلاد العراق و الشام.

و قد عرفت هذه المنطقة الهلالية بوفرة مواردها، و خصوبة أرضها الشديدة التى نافست فى كثير من الأحيان خصوبة التربة المصرية.

و الناظر المتأمل لهاتين المنطقتين يجد أن لهما طبيعة جغرافية مفتوحة و سلسة تسمح بالتنقل البشرى و الهجرات بشكل مستمر، فهى إذا ليست حدود صعبة التجاوز كما كان الحال بالنسبة للحدود المصرية.

و لهذا كانت منطقتى العراق و الشام مسرحا لصدام مستمر بين المجتمعات المتوطنة فى الأرض، و بين أى هجرات وافدة جديدة، فالسابقة تحاول الحفاظ على ممتلكاتها و مواردها، و الأخرى تحاول أن تزيح المتوطنين من أماكنهم و الاستيلاء على مواردهم بأى شكل.

نتج عن هذا الصدام المستمر توسع و انكماش مستمرين لحدود الممالك المؤسسة فى هذه المناطق، فهى تارة مؤلفة من مدينة أو أكثر، و تارة أخرى متوسعة حتى قد تشمل ابتلاع الحضارة الفرعونية بكامل حدودها و الشام و خلف النهرين.

كل هذه العوامل السابقة أدت بهذه البيئة أن تفرض مفهوم البقاء للأقوى.

و تعالوا نبحر معا إلى الوراء فى خضم هذه الفوضى المتلاطمة.

****

<u>بلاد ما بين النهرين: من حكام مدينة إلى ملوك العالم:</u>

إلى الشرق من الحضارة الفرعونية و فى توقيت شبه متزامن مع التجمع العمرانى المصرى بدأت مجموعات بشرية أخرى فى التجمع حول رافدين نهريين آخرين هما دجلة و الفرات، و مع خصوبة الأرض و توافر المياه تطورت هذه المجموعات البشرية سريعا إلى التحديث التالى، و هو المجتمع الزراعى مؤلفين تجمعات المدن.

عرفت هذه المدن بأنها ممالك مستقلة عن بعضها مثل مملكة أور، مملكة كيش، مملكة أوروك و كان مؤسسها أعراق عرفت بالسومريين.

كان من الطبيعى بعد الوصول لهذا المستوى أن تنشأ الوحدة بين هذه المدن إما بالتوافق، أو بالصدام العسكرى كما هى القاعدة البشرية فى هذا الوقت من الرغبة فى السيطرة على موارد أكبر.

ولكن الناظر والمتأمل فى أحوال الممالك السومرية يجد أن حالها كان حال التطاحن شبه المستمر مع بعضها البعض من أجل السيطرة وفقط السيطرة على أكبر قدر من الموارد ولكن ما السبب يا ترى؟

إذا عقدنا مقارنة سريعة بين وادى النيل و أودية دجلة و الفرات نجد الآتى:

-كان الفيضان فى وادى النيل من الشدة بحيث لا تستطيع مدينة واحدة السيطرة عليه، فكان يجبر على كل المدن الواقعة على خط الفيضان تقريبا من التعاون معا من أجل السيطرة على جريانه، وتنظيم سيره، فقد كان النهر تقريبا هو الشريان النابض لكل المدن على ضفافه، فكان التعاون أمرا قسريا من أجل الحياة، وبهذا كانت خطوة الوحدة أمرا قسريا أيضا.

-وبنظرة أخرى على حدود الدولة الفرعونية، و التى تميزت بأنها صحراوية قاحلة، لا تسمح بسهولة بدخول مجتمعات جديدة إلى داخل العرق المصرى، فكانت المجتمعات الموجودة على الضفة مجتمعات شبه نقية ناتجة عن الاستقرار، وليس الهجرة لفترات طويلة من الزمن.

-على جانب آخر نرى فى أودية دجلة و الفرات الرسوبية الهادئة أرضا جاهزة للزراعة و الاستصلاح فى أى وقت لا تحتاج لكثير من التعاون، إذا فكل مدينة لها أراضيها المستقلة، و المجهود الوحيد الذى يجب أن يُبذل هو مجهود الدفاع عنها من الممالك المجاورة.

-أضف لذلك حدود البلاد المفتوحة أمام الهجرات البشرية المتعاقبة، جعلت من أرض بلاد الرافدين الخصبة وجهة مميزة للمهاجرين و هو ما جعل الحالة السكانية العراقية فى حالة تغير مستمر، جعل من الصعب معها على ممالك المدن التعاونُ؛ فكلما تعارفت مدن تغيرت و حل ومحلها مدن أخرى أعادت للتنافس و الصدام أوجَه مرة أخرى.

و لكن هل يعنى ذلك أن بلاد الرافدين لم تعرف الوحدة مطلقًا؟

بالطبع لا؛ فإن الصدامات العسكرية المستمرة بين المدن مع هجرات قبائل جديدة فرضت على الساحة -فى أوقات معينة من تاريخ العراق- وجود قوة مهيمنة استطاعت بسط سيطرتها على باقى المدن العراقية، و حولتها من نظام الممالك المتناثرة إلى النظام الملكى المركزى.

كانت أولى مظاهر هذه الوحدة قيامَ الدولة السومرية الأولى فى عام 2800 ق.م. على يد إحدى الأسر الحاكمة القوية فى مدينة "كيش."

استمر الحكم فى مدينة كيش فترةً تراوحت بين ثلاثين إلى أربعين سنة، حتى استولى على الحكم أحدُ ملوك مدينة "أوروك" القديمة عام 2750 ق.م. و استمر الحكم فى هذه المدينة لخمسين سنة أخرى ثم عادت الزعامة لمدينة "كيش" مرةً ثانية.

نلاحظ هنا أن حتى فى فترة التوحيد لم يكن هناك فرصة لاستتباب الملك فى يد إقليم واحد. ناهيك عن أسرة واحدة لفترة طويلة من الزمن كما كان الحال فى عصر الدولة الفرعونية التى كان يستمر الحكم فى أسرة بعينها لمئات السنين.

كانت بدايات الوحدة –إذا- فى بلاد العراق وحدةً متضعضعةً غلبت عليها النزعة الفردية و اللامركزية فى الحكم و ميزتها روح التنافس الحامية بين المدن.

فى خضم هذا التنافس الفوضوى بين المدن السومرية استقبلت حدود بلاد الرافدين مجموعة جديدة من القبائل الآسيوية العابرة للنهر عرفوا بالآكاديين، و استوطنوا فى شمال منطقة سومر.

و تحت قيادة أحد ملوك هذه المجموعة الجديدة عرف العراقُ أولَ إمبراطورية فى تاريخه.

سرجون الأكادى ملك الأرض:

فى عام 2371 ق.م. تمكن أحد ملوك الأكاديين من السيطرة على كافة بلاد سومر، بل وتوحيد بلاد الرافدين من المنبع إلى المصب فى دولة واحدة، و كان هذا الملك هو ما يعرف باسم (سرجون العظيم).

لا نعلم الكثير عن هذا الملك، ولكن بعض علماء الآثار يذكرون أن هذا الملك كان من الفاتحين القدامى، وأن إمبراطوريته شملت العراق وفارس إلى الهند وبلاد الشام ومصر (ربما كان ذلك فى عصر الاضمحلال الأول المصرى) وحتى حوض البحر الأبيض المتوسط بكامله.

ما يعنينا أن هذا الملك كان يعتبر بداية لسلطة مركزية قوية رفعت منزلته من مجرد حاكم إلى لقب يعادل التأليه والتقديس (ملك الأرض وإمبراطور العالم).

وقد استمر ملكه لفترة قاربت على الستين عاما، ولكن مع وفاته لم تستطع المملكة الأكادية الحفاظ على قوتها وانهارت سريعا تحت وطأة ضربات القبائل المتنافسة والمدن السومرية الأخرى حتى ورث حكم الأكاديين داخل العراق مملكة أور.

استمرت أور تحتفظ بالزعامة فى المدن السومرية مدة قرن من الزمان حتى نافستها إحدى القبائل القوية النازحة من بادية الجزيرة العربية ويُعرفوا بالعيلاميين ودمروا مدينة أور تدميرا كاملا ليقضوا بذلك على هذه المدينة.

وكالعادة لم يستمر حكم العيلاميين كثيرا لهذه المنطقة تحت التنافس الشديد من المدن السومرية، ظهرت سلالة ملكية جديدة فى وسط العراق استمرت ما يقرب من ثلاثة قرون وهى الدولة البابلية الأولى.

****

<u>الدولة البابلية الأولى دولة القانون:</u>

مع حلول عام 2000 ق.م. تمكنت مدينة بابل من أواسط أرض العراق بفرض سيطرتها على كل المدن العراقية وتوحيد بلاد الرافدين تحت حكومة مركزية قوية بقيادة الملك حمورابى صاحب أول نصوص قانونية معروفة فى التاريخ.

يعتبر حمورابى بمثابة نعرمر العراق، فهو مؤسس الدولة المركزية و القوانين وشهدت العراق فى عهده قفزات تاريخية فى كل المجالات الحضارية من زراعة وصناعة وتجارة وقوانين.

تبع حمورابى مجموعة من الملوك جاهدوا للحفاظ على ملك الإمبراطورية البابلية على مدار ثلاثة قرون، ولكن الميل المستمر للشعوب بالتمرد

بالإضافة إلى الهجرات و الغزوات المستمرة من البلاد المجاورة جعل أمر سقوط الدولة البابلية مسألة وقت لا أكثر، حتى خربها الحيثيون و مهدوا لحكم قبائل جديدة وفدت من الشمال العراقى و أذاقت الشرق القديم الأمرين على مدى ما يقرب من ثمانية قرون من الزمان.

****

<u>الدولة الأشورية سوط عذاب العراق القديم:</u>

كان أول تواجد للأشوريين فى العراق منذ عام 1850 ق.م. فهم مجموعات من القبائل المختلفة التى استقرت فى المنطقة الجبلية القاسية فى شمال العراق.

و نتيجة البيئة القاسية فى هذه المنطقة تطبعت هذه القبائل بالطبع العسكرى الصرف، فهى شعوب محاربة تعتمد على أمرين لاستقامة حياتها كان الأول هى شبكة تجارية واسعة أقاموها مع قبائل الشمال عن طريق المتاجرة فى الغلات و المعادن و غيرهم.

و أما الأمر الثانى: فهو الإغارات المستمرة على شعوب وسط و جنوب العراق من البابليين و السومريين.

و قد استمرت آشور شوكة فى خاصرة ممالك العراق القديم بشكل دورى تقريبا اللهم إلا فى الفترة التى تمكن فيها حمورابى من إخضاع مملكتهم

القديمة، والتى لم تلبث أن عاودت نشاطها بشكل أقوى مع تخلخل الإدارة المركزية البابلية مع ضعف خلفائه.

ومنذ عام 1244 ق.م. وحتى عام 616 ق.م. كانت الإمبراطورية الأشورية فى حروب دائمة ومستمرة مع المدن العراقية حتى تمام السيطرة عليها، ثم التوسع إلى غرب الهلال الخصيب، حيث دمروا مملكة الحيثيين ومملكة بنى إسرائيل الشمالية (كما سيأتى ذكره فى موضعه) ثم اجتازوها إلى السيطرة على مصر عام 669 ق.م. لتبتلع بذلك كل الشرق الأدنى تحت حكمها.

كان المبدأ الرئيسى لمملكة آشور قائما على نظرية البقاء الأقوى داخليا وخارجيا، فلا مجال للرحمة بالضعفاء، ولذلك كان معتادا منهم إقامة مذابح للممالك المهزومة وترحيل آلاف العبيد من أهل هذه الممالك إلى حواضر المملكة الأشورية لتسخيرهم فى العمل فى بناء القصور والمعابد والهياكل. وحتى فى الداخل تعددت التمردات والانقلابات العسكرية من قادة فى الجيش الآشورى بمجرد ظهور أول بادرة ضعف من الملك.

كانت الإمبراطورية الأشورية هى حجر الأساس فى بناء النظم الفاشية القمعية التى تتعامل مع الأزمات من منطلق أمنى بحت، وكانت آلتهم العسكرية المتقدمة عاملا رئيسيا فى ترسيخ هذا المفهوم فى أذهان حكامهم.

ولكن هذا الملك الجبرى لنظام أوغل فى العنف، لم يستطع مقاومة الميل العنيف لشعوب العراق و البلاد الأخرى فى الاستقلال عن هذا العنف المجرد.

وكانت النتيجة المنطقية مع ظهور سلالات قوية أخرى فى بابل و إزاء الوهن الذى بدأ يدب فى أوصال المارد الأشورى من فرط الحروب المستمرة التى لا تكاد تنقطع، كانت النتيجة هى استيلاء الكلدانيين البابليين على نينوى عاصمة الملك الأشورى و تدميرها بالكامل لتختفى من التاريخ سوط عذاب الشعوب القديم.

****

<u>الدولة البابلية الثانية:</u>

مع انهيار الدولة الأشورية عام 616 ق.م. على يد حكام بابل، كانت الشمس تكاد تغرب عن حكم أباطرة العراق، فقد كان حكم الدولة البابلية الثانية قصير الأمد لم يدم لأكثر من أربعين عام تعاقب فيها أربعة ملوك، ربما يكون أشهرهم هو نبوخذ نصر الثانى و المعروف فترة حكمه بفترتى السبى البابلى الأول و الثانى.

الأول: كان عام 597 ق.م. حين هاجم مملكة بنى إسرائيل الجنوبية عقابًا لها على ثورتها، وحاصرها واستاق ثلاثة آلاف من بنى إسرائيل أسرى إلى بابل كعبيد.

والثانية: كانت عام 586 ق.م. حين عاودوا الثورة، فهاجم بيت المقدس عاصمة ملكهم، ولم يدع فيها حجرا قائمًا على حجر واستاق أربعين ألفًا منهم كعبيد إلى بابل (ظلوا هناك حتى أعادهم كورش إلى بيت المقدس مع حكم الفرس).

ومع وفاته كان ورثته ضعافا لم يستطيعوا الحفاظ على مركزية الإمبراطورية وقوتها، وخصوصا مع بروز خطر دولة الفرس فى الشرق بقيادة داريوس الثانى والتى ظلت تضغط على بابل حتى أخضعتها لحكمها، لتتوارى بعدها إمبراطورية بلاد الرافدين فى جلباب إمبراطورية الفرس.

مع هذا السرد السريع لتاريخ بلاد الرافدين نستطيع أن نرى لماذا كانت الفوضى هى السمة المميزة فى تلك البلاد؟ ولماذا اندثرت ممالكهم سريعا وليس كحال الفراعنة؟

<u>مثلث الفوضى:</u>

-الهدف: كان الهدف الرئيسى من بناء المدن هو السيطرة على الموارد السيطرة وفقط السيطرة كانت هى الدافع الأساسى لقيام الممالك،

فالتعاون كان سمة غائبة بين المدن العراقية بعضها ببعض، ولهذا رأينا كيف باءت عدة محاولات لتوحيد العراق بالفشل فى البدايات، فغياب قيمة التعاون وخلق التكافل بين المدن العراقية جعل من الصعوبة بمكان صهر هذه الأعراق المتباينة الوافدة فى بوتقة الوحدة وحتى مع نظام حمورابى المركزى القانونى لم تدم دولته سوى ثلاثة قرون، استثقل بعدها أهل البلاد الوحدة ليعودوا لفوضى ولم يعرفوا الوحدة لفترة أطول إلا مع سيطرة القهر الأشورى الذى كسر إرادتهم بشكل وحشى، وحتى فى خضم حكمهم كانوا دائمي الثورة فهم لا يريدون التعاون، وإنما يريدون السيطرة والمغالبة.

-المستفيد: تعددت النخب المستفيدة من الفوضى فى ظل تعاقب الممالك العراقية المختلفة بحيث يصعب حصرهم ما بين ملوك مدن يطمحون أن يكونوا أباطرة، وبين كهنة يريدون لآلهتهم السلطة العليا التى تضمن لهم تدفق الموارد الطائلة على الهياكل، وبين ضباط وقادة جيش طامعين فى الانقلاب عند أول بادرة لضعف الحكام.

-الخطأ: كان الخطأ بمنتهى البساطة هو غياب العقل والقيم فى هذه المجتمعات، فمع غياب العقل أصبحت الغريزة هى المسيطر والمحرك الأول للصراعات بين مدن وممالك العراق، وجعلهم الطمع والجشع يسوموا مواطنيهم ومواطنى المدن الأخرى القابعة تحت سلطانهم صنوفا مختلفة

من العذاب ما بين عذاب جسدى ونفسى حتى أنهم كانوا يصنفون البشر على ثلاثة أقسام: الإنسان الكامل وهو الحر صاحب الشأن، والمرؤوس الوضيع وهو بمثابة الطبقة الوسطى عندهم، والعبد المسبى الموسوم وهو لا حق له على الإطلاق.

ويكفيهم ما فعلوا مع رسول الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من اضطهاد ومحاولة قتله حرقا وإخراجه من البلاد لمجرد دعوته لهم بالتعقل والعودة لنظام آدم فى كل شيء، وأولها العبادة الحق لإله واحد حتى تستقيم بهم الحياة، مع أنه لم يكن يطلب ملكا أوسلطانا، إنما كان يدعوهم لتحكيم عقولهم والتحكم فى غرائزهم.

بناءً على كل هذا الطغيان الصرف استحقت بابل لقب المدينة الملعونة.

بسم الله الرحمن الرحيم "وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إبراهيم (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأرض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)" (الأنبياء، 51-71)

وكان خروجه من أرض العراق توطئة لحلقة أخرى من حلقات الصراع بين النظام و الفوضى.

<u>أرض الشام: بركة الرحمن و فوضى الإنسان</u>

إلى الغرب من بلاد الرافدين و فى منطقة جمعت بين التضاريس الوعرة، و الأرض الخصبة، و السواحل المفتوحة، فى بؤرة توفرت لها سبل العيش بأشكال عدة وفدت مجموعة من القبائل من ولد كنعان بن سام بن نوح على بلاد الشام (سوريا ولبنان و فلسطين) حيث استقروا فى عدة مناطق مؤسسين مجموعة من المدن، و التى كونت فيما بعد الحضارة الفينيقية.

تميزت الطبيعة الجغرافية للمدن الفينيقية فى المجمل بالوعورة التضاريسية، فأرضها فى الغالب كانت أرض جبلية، وهذه الأرض الجبلية أعاقت إلى حد كبير أى محاولة مبدئية لتوحيد مدن أرض كنعان فى دولة واحدة.

كانت غالبية المدن المتكونة على الساحل الشامى تعتمد فى أساسها على النظام القبلى، ولكن على عكس المدن العراقية فإن درجة التنافس بين المدن الكنعانية كانت أخف وطأً بكثير، فقد اعتمدت المدن الفينيقية و الكنعانية على التعاون التجارى فيما بينها، و استغلال كونها ممر لطرق التجارة بين الإمبراطوريات المتعاقبة، فأقاموا ما يشبه الكونفدراليات بدون الحاجة للتوحد فى دولة واحدة.

كما أن المساحة الجغرافية و التركيبة السكانية المحدودة نسبيا فى بلاد كنعان بالإضافة لوقوعها بين إمبراطوريتين كبيرتين هما العراق و مصر جعل من تواجد دولة موحدة فى هذه المنطقة خطرا يهدد وجود الإمبراطوريتين ما حدا بهما إلى إخضاع تلك المنطقة و ضمها لهما على مدار العصور، فكانت منطقة الشام بؤرة صراع بين الإمبراطوريات نظرا لأهميتها الاستراتيجية و التجارية و خاصة فى الألف الثانى من قبل الميلاد.

و يبدو أن المدن الكنعانية كانت على علم جيد بحدود قدرتها، فارتضت لعب دور التابع أو الحليف بدلا من التوحد.

ولكن لا يمنع ذلك من وجود تنافس على الزعامة بين مدن الشام المختلفة لاحتلال منصب الزعامة التجارية أو السياسية، فكان التنافس بين مدن أوغاريت وصور وصيدا وغيرها.

مع هذه الظروف الجغرافية والسياسية ومع الصدام المتتالى بين الإمبراطوريات للسيطرة على هذا الممر الحيوى من الموارد كل هذا كان تمهيدا لجعل المنطقة الشامية بؤرة مشتعلة لا تهدأ من الفوضى.

وكان خروج خليل الله إبراهيم من العراق إلى الشام حلقة مفصلية من تطور الأحداث فى هذه المنطقة المشتعلة أساسا.

<u>التغريبة الإبراهيمية:</u>

يروي ابن جرير الطبرى فى التاريخ الكبير أن خليل الله إبراهيم عليه السلام قد خرج من العراق بعد محاولة البابليين حرقه حيا فى العراق، فخرج بزوجته سارة ونبى الله لوط إلى أرض الشام فى بداية رحلته التغريبية.

كان إبراهيم عليه السلام رجلا لا يطلب سلطانا ولا ينازع الملوك فى سلطانهم، ومن المؤكد أيضا أن معجزة النار التى حدثت له فى العراق القريب من الشام قد ألقت بأصدائها فى بلاد الشام، ومع أسلوبه الهادئ المتزن لاقى سيدنا إبراهيم قبولا فى أوساط الشعوب الكنعانية وعند بعض

ملوك المدن الكنعانية، ويذكر مجير الدين الحنبلى فى كتابه أنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل كيف استقبل ملك شاليم (وهى أورشاليم أو بيت المقدس وتعنى بالأرامية مدينة السلام وقد أسماها الكنعانيين ذلك نسبة لشاليم إله السلام عندهم) ملكى صادق إبراهيم عليه السلام ووقره بالغ التوقير.

وقد استمر خليل الله إبراهيم فى دعوته إلى الله مارا بكل المدن الكنعانية حتى وصوله إلى مصر، فقد كانت دعوته دعوة جامعة لكل البلاد للعودة إلى النظام الأساسى لآدم.

ومع وصول إبراهيم لمصر استقر هناك لفترة من الوقت وتحكى الكتب السماوية كيف نزل ضيفا على ملك مصر، وكيف تزوج من السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل، ثم انتقل بها إلى الجزيرة العربية، وحيث بنوا البيت الحرام فى مكة، ثم كيف أنعم الله عليه بسيدنا إسحاق من السيدة سارة.

كان لخليل الله إبراهيم عند هذه النقطة منطقتى ارتكاز فى الجزيرة العربية والشام.

فسيدنا إسماعيل تصاهر مع قبائل جرهم فى الجزيرة العربية، وخرج من نسله العرب العدنانيون.

و أما سيدنا إسحاق فتصاهر مع الكنعانيين فى أرض فلسطين، و أنجب عيسى و يعقوب.

و عند يعقوب لابد أن نتوقف، فمنه خرج عرق العبرانيين و ماله من دور فى الفوضى التى اشتعلت فى بلاد الشام.

****

مملكة بنى إسرائيل المملكة الملعونة:

أصل التكوين :

تزعم سيدنا يعقوب رئاسة البيت الإبراهيمى فى الشام بعد وفاة أبيه إسحاق حيث أنجب اثنى عشر ولدا هم الأسباط (و منهم سيدنا يوسف)

و يحكى لنا القرآن كيف كانت الغيرة من إخوة يوسف عليه، و محاولتهم إبعاده بإلقائه فى البئر ثم بيعه إلى عزيز مصر و تطور مسار الأحداث حتى تمكن يوسف عليه السلام من الارتقاء فى مناصب الدولة فى مصر، ثم عفوه عن إخوته، و استقدام بنى إسرائيل (و هو يعقوب و تعنى بالعبرانية عبد الله) مع أبيه إلى مصر عقب موسم الجدب الذى ضرب الشام و استقر بنو إسرائيل فى مصر فترة زادت على قرنين من الزمان لينشئوا أول قومية عرقية نقية فى التاريخ.

obeikandl.com

ويبدو أن الحقبة التاريخية لبداية إقامتهم كانت فى نهاية حكم ملوك الرعاة أو الهكسوس و الّذين كانوا يعتبرون على شبه توافق مع القومية العبرانية، ولكن مع اندحار حكم الهكسوس و استعادة الفراعنة للحكم فيبدوا أن الفراعين قلبوا ظهر المجن لبنى إسرائيل و اعتبروهم جواسيسا و عيونا للقبائل الكنعانية، فساموهم ألوان مختلفة من العذاب و سخروهم فى أعمال العبودية و الذل لفترات طويلة.

و مع بعث رسول الله موسى إلى مصر بهدف إخراج بنى إسرائيل من ذل العبودية فى مصر و إعادتهم إلى الأرض التى استوطنهم أباهم يعقوب قديما قبل ذهابه إلى مصر بجوار الكنعانيين.

و مع خروج بنى إسرائيل من مصر و هلاك فرعون و جيشه، كان من الطبيعى أن تتوجه القومية العبرانية مباشرة إلى أرض فلسطين، ولكن قبل عودتهم إلى هذه الأرض كان لابد أن يمروا بفترة اختبار لإثبات جدارتهم و استحقاقهم للعودة لهذه الأرض.

ولكن العبرانيين الّذين تربوا فى الذل و العبودية و عقيدة الملك الإله الفرعونية تأثروا بهذه العقيدة تأثرا ضخما، فكانت النتيجة أن أصيبت القومية العبرانية بنوع من الفصام بين عزة اختيار الله لهم و اصطفائه على غيرهم و ذل العبودية للبشر فى الفترة الفرعونية.

فى فترة المرور فى شبه جزيرة سيناء للوصول إلى الحدود الفلسطينية تعرضت القبائل العبرانية الاثنى عشر للعديد من الاختبارات على المستوى العقائدى، و الاقتصادى، بل و الحربى لإثبات استحقاقهم دخول الأرض المقدسة(أرض أبيهم يعقوب)، ولكن فشلت الغالبية العبرانية فى اجتياز الاختبارات.

فعلى الصعيد العقائدى حادوا عن المعيار التوحيدى إلى عبودية العجل متأثرين بالعبادة الفرعونية.

و على الصعيد الاقتصادى كان طمع الغالبية العظمى من العبرانيين فى تحصيل قدر أكبر من الموارد فى مخالفة أمر الله الصريح بعدم العمل يوم السبت ما جعلهم استحقوا عقوبة المسخ كما ذكر القرآن.

وكانت المخالفة على الصعيد الحربى هى القشة التى قسمت ظهر البعير، فمن الطبيعى بعد مرور هذه الفترة الزمنية الطويلة على مغادرة العبرانيين للأراضى الفلسطينية، و مع استمرار وفود قبائل جديدة من الكنعانيين على الأراضى الفلسطينية كان لابد من أن يعتبروا قومية تقدر بمئات الآلاف من العبرانيين هى قومية غازية وكان لابد أنهم سيعتبرونها عدوا، فكان لابد من جمع معلومات عن التغيرات الجديدة فى الأرض و الاستعداد العسكرى لذلك.

ولكن بما أن فرقة الاستطلاع عادت ومعها من الأخبار عن قوة الكنعانيين وتحصيناتهم ما ألقى الرعب فى قلوب العبرانيين المجبولين على العبودية لفترة طويلة، فقد رفضوا الدخول فى منافسة حربية مع أقوام الأرض الجديدة، فأثبتوا عدم جدارتهم بحيازة أرض تتنافس عليها الممالك و الإمبراطوريات المجاورة كلها.

كان التحريم الإلهى علي القومية العبرانية بدخول الأرض الفلسطينية لمدة أربعين سنة يشكل صدمة عنيفة للقومية العبرانية، وشكل فى الجيل الجديد منهم نوعا جديدا من التعقيدات النفسية فبالإضافة للخوف من القوة المادية الصرفة والرغبة فى الثروات تمكنت منهم فكرة أنهم شعب الله المختار مهما فعلوا من أفعال يندى لها الجبين، فكانوا بذلك أول واضع لفكرة الدماء الملكية الزرقاء، فهم القومية النقية الوحيدة فى ذلك الوقت فى حين أن منافسيهم على الثروات من القبائل الكنعانية المختلطة هم أدنى منهم منزلة، ولذلك يحل لهم فعل أى شيء لهزيمتهم من خداع، ومكر، و غدر، وبيع للشرف ودموية من أجل الحصول على هدفهم فكان مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

فتروى رواياتاهم التلمودية كيف قام الجيل الجديد بأول خطوة حربية عند تخطيهم الحدود الفلسطينية بعد فترة التيه، وكيف قامت الجارية العبرانية رحاب بإغواء حراس بوابة أريحا وإطلاع العبرانيين على مداخل و

مخارج المدينة، وعند نصرهم أعملوا فى أهلها السيف رجالا ونساءً و أطفالا فى دموية بشعة ما جعلهم بذلك فى وضع العدواة الصرفة مع قبائل كنعان المختلفة من العماليق وغيرهم من القوميات الفلسطينية، وظل هذا الصراع قائما بين قومية تعتمد على التوحيد اسما وتخالفه واقعيا فى أغلبها وبين قوميات وثنية، ولكن أرسخ قدما فى المنطقة من القومية الوافدة.

كانت طريقة دخول بنى إسرائيل إلى الأرض الفلسطينية مخالفة تماما للطريقة التى دخل بها جدهم إبراهيم الخليل إلى فلسطين قبل ما يقرب من خمسة قرون.

فطريقة الدخول الدموية التى اعتمدوها رسخت فى أذهان القبائل الكنعانية منطق أن بني إسرائيل ما هم إلا غاصبين معتدين لا يسعون إلى التعايش، وإنما إلى السيطرة وهو ما وضعهم فى خانة العداوة الشديدة.

وقد اهتم بنو إسرائيل بالاهتمام بجانب واحد من الشريعة اليهودية، وهى أنهم شعب الله المختار فلهم كل الحقوق، أما ما فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الله وتطبيقهم لباقى أحكامه عليهم فأهملوها وكفروا بها وكان هذا امتدادا لحالة الفصام التى أصابتهم منذ خرجوا من مصر .

كان هذا الوضع حتى بداية ظهور نبى الله داوود وبداية المملكة الفعلية لبنى إسرائيل.

تأسيس المملكة:

ظلت الحرب سجالا فى أرض فلسطين بين بنى إسرائيل وقبائل العماليق الكنعانية، وذلك حتى عام 1050 ق.م. حينما قاد الملك شاول (وهو طالوت المذكور فى القرآن) جيشا من بنى إسرائيل لاستعادة التابوت المقدس المحتوى على نسخة ألواح الشريعة التوراتية.

وطبقا للنص القرآنى فقد فقدَ الجيش أكثر عدده قبل القتال؛ لأنهم لم يكن لهم صبرا على العطش فبطبيعة الحال لن يكون لهم صبرا على ملاقاة العدو المتمثل فى جالوت المحارب الجبار وجيشه من العماليق.

ولكن القلة القليلة الباقية التى صمدت قد استطاعت ملاقاة العدو والانتصار عليه نصرا حاسما خاصة مع قتل نبى الله داوود لجالوت ملك العماليق، فكان هذا أول خطوة نحو توحيد سائر الأراضى الفلسطينية تحت سيطرة بنى إسرائيل فى أول مملكة موحدة.

تعاقب على مملكة إسرائيل الموحدة ثلاثة ملوك، وكان بداية ارتفاعها الحقيقى فى عهد داوود عليه السلام الذى جمع عقلاء بنى إسرائيل فكانوا خاصة مستشاريه والساعين لفرض تطبيق الشريعة بكل ما فيها على بنى

إسرائيل قبل تطبيقها على القبائل الكنعانية التى خضعت لسلطان بنى إسرائيل.

وبلغت ذروة قوة مملكة بنى إسرائيل فى عهد سيدنا سليمان عليه السلام الذى امتلك من أسباب القوة والسطوة ما مكنه من فرض سلطانه على كامل الأرض الفلسطينية وربما إلى مصر وحدود العراق بل واليمن.

فالشاهد من القصص القرآنى أن سليمان قد أوتى من أسباب العلم الأول من العلم والتكنولوجيا ما مكنه من جعل مدينة بيت المقدس عاصمة باهرة ومركز حضارى عملاق، ولعل الهيكل السليمانى الذى كان تحفة اليهود فى ذلك الوقت كان تعبيرا بالغ الوضوح عن مدى القوة والثراء الذى تمتعت به مملكة إسرائيل فى ذلك الوقت.

ولكن مع قومية مصابة بالانعزال النفسى، وجنون العظمة ومصرين تمام الإصرار على ترك الشريعة الإلهية إلى الأهواء الشخصية كان من الصعب حتى على نبيين ملكين مثل داوود وسليمان -الذى كانت تهابه الشياطين- كان من الصعب عليهم تغيير النفسية المنحرفة لهذه القومية التى كان يُبعث فيهم من الأنبياء ما لا حصر له.

فمع وفاة الملكين النبيين انقسمت مملكة بنى إسرائيل بين الأسباط الاثنى عشر الّذين لم يوجد ملك بعد سليمان عنده من أسباب القوة ما يمكنه

من إرغامهم على الوحدة، فكان أن انقسمت مملكة إسرائيل الموحدة عام 930 ق.م. إلى مملكتى إسرائيل الشمالية وعاصمتها السامرة وتتكون من عشرة أسباط، ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها بيت المقدس ولم تكن تتجاوز بضعة كيلومترات وتتكون من سبطين فقط.

كان من الطبيعى بعد هذا الانقسام أن تتحول المملكتين إلى فريسة سهلة للأعداء القدامى من القبائل الكنعانية، وأن تتحول من دور اللاعب الأساسى إلى التابع للإمبراطوريات الكبرى.

لم تصمد مملكة إسرائيل الشمالية أكثر من قرنين من الزمان حين غزاها الآشوريين وأزالوها من الوجود عام 722 ق.م.

ومع زوال المملكة الشمالية تضاءل الدور الخاص بالمملكة الجنوبية و الذى استتبعه بالضرورة نقص فى مواردها كان من الطبيعى أن تبحث المملكة عن فرصة للتخلص من التبعية الإمبراطورية والعودة للعب دور المسيطر فى الأرض الكنعانية.

وجاءت هذه الفرصة مع ضعف الدولة الآشورية ومحاولة الفراعنة الأخيرة لاستعادة أملاكهم فى الأرض الكنعانية، ثم اصطدامهم بالدولة البابلية القوية.

استغلت مملكة يهوذا هذه الفرصة و حاولت رفع رأسها بالعصيان على نبوخذ نصر الثانى ملك بابل، ولكنهم لم يحسبوا حساب قوة خصمهم الذى كان فى أوج شدته.

فقد حاصر نبوخذ نصر القدس، وخرب سورها، و استاق ثلاثة آلاف من بنى إسرائيل كعبيد إلى بابل فيما عُرف بفترة السبى البابلى الأول سنة597 ق.م.

ولم يمر أحد عشر عاما حتى تجددت الثورة، فقام نبوخذ نصر هذه المرة بتدمير القدس تدميرا شاملا، و أزال الهيكل السليمانى من الوجود و استاق كنوزه مع أربعين ألف يهودى كعبيد إلى بابل فيما عُرف بالسبى البابلى الثانى عام 586ق.م.

كان هذا الحدث صدمة عنيفة للشعب اليهودى و أضاف لهم انحرافا نفسيا جديدا إلى جنون العظمة و النرجسية المطلقة، فأضاف لهم بذلك الفكرة المعبر عنها بالمثل الدارج (تمسكن حتى تتمكن) و ظهر ذلك جليا فى الصراع الذى دار عقب ذلك مع القوى الجديدة التى نشأت فى المنطقة من فرس و إغريق و رومان.

كانت الفوضى هنا فى أرض كنعان تطورا من مجرد الرغبة فى السيطرة على الموارد و بناء مدن و حضارات إلى الرغبة فى الانفراد الكامل بالثروات، و

إبادة أعراق بشرية كاملة بدعوى الحق الإلهى- والله من ذلك براء- كما أضافت فكرة العرق الأرقى نزعة شعوبية جديدة وإظهارا لبعد الاضطراب النفسى ودوره فى الفوضى.

كان المستفيد من الفوضى المتمثلة فى الصراعات الدموية بين قومية نقية فى مواجهة القبائل المختلطة هو الطرف الفائز بالصراع، فقد أصبح الأمر صراعا من أجل البقاء بين الطرفين فكانت المستفيد عاما من الحكام إلى المحكومين.

أما الخطأ فكان من طرف ظن أنه لمجرد أن حصلوا على دعم إلهى مؤقت مشروط باتباعهم لمنهجه أنه من حقهم منح نفسهم صك غفران من كل المساوئ بدعوى أنهم الشعب المختار فكانت النتيجة تشريدهم، وإزالة ملكهم، وتحويلهم إلى حفنة من المضطربين المتعطشين للسلطة بأى طريقة ستظهر جليا فى الصراعات بعد ذلك.

<u>بناءً على ما سبق استحقت مملكة بنى إسرائيل اللعنة:</u>

بسم الله الرحمن الرحيم (لُعِنَ الّذين كَفَرُواْ مِن بَنِي إسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (79)) صدق الله العظيم (المائدة، 78-79)

****

الفرس/الإغريق: الفائز يحصد كل شيء

طوال خمسة وثلاثين قرنا من الزمان كانت منطقة الشرق الأوسط - حيث مصر والشام والعراق – تعتبر أكبر تمركز بشرى حضارى على سطح الكرة الأرضية تموج فيها الأحداث، الاضطرابات، الصراعات والصدامات بين القوتين العظميين فى ذلك الوقت دولة الفراعنة ودولة العراقيين.

وذكرنا سابقا كيف توسطت الحضارة الكنعانية فى الشام دائرة الصراع بين القوتين ونشوء أول قومية عرقية فى الشام وهى القومية اليهودية، و التى استغلت منهج الله اسوأ استغلال فكان أن سامهم الله بها سوء العذاب وتحولوا من مجتمع ملكى مسيطر إلى مجتمع عبيد ذليل طوال سبعين عاما فى أرض بابل.

كانت السيطرة الحضارية الرئيسية حتى ذلك الوقت بين أبناء سام وحام ابنى نوح.

ولكن مع حلول منتصف القرن الخامس قبل الميلاد كانت بوادر تشكل قوتين جديدتين إلى الشرق والشمال من الهلال الخصيب هما الفرس و الإغريق.

كانت هاتين القوتين منحدرتين من أصل واحد من أبناء يافث بن نوح (المعروف أنه أبو الترك) وتعرف بالعرق الآرى.

هاجرت قبائل الفرس و الميديين من نهر الفولجا شمال بحر قزوين، و استقرت فى الأرض التى تقع إلى الشرق من بلاد الرافدين و أسموها إيران و تعنى بالفارسية (أرض الآريين).

مع بداية القرن السابع قبل الميلاد كان الميديين قد أسسوا قوة كبيرة شرق بابل و بلغوا من قوتهم أن سيطروا على أذربيجان، و خراسان، إلى وسط آسيا و تمكنوا كذلك من تدمير عاصمة الأشوريين فى نينوى و هو ما دعا ملك بابل نبوخذ نصر إلى مهادنتهم و تزوج من ابنة إمبراطورهم سياخريس .

و يعتبر كثير من المؤرخين الميديين هما أجداد الأكراد الحاليين.

و لكن مع حلول عام 553 ق.م. قاد ملك الفرس داريوس الأخمينى (و هو كورش) تمردًا على الإمبراطورية الميدية و انتصر عليهم مؤسسًا الإمبراطورية الفارسية الأخمينية.

كان وصول الفرس إلى سدة الحكم نقطة تحول فى المنطقة حيث تقدمت جيوشهم إلى بلاد بابل و خربتها تخريبًا تامًا و أسقطت الدولة البابلية.

<u>التقارب الفارسى اليهودى:</u>

مع اقتحام جيوش الفرس لبلاد العراق و سيطرتهم عليها بشكل كامل كان أكثر من أربعين ألف يهودى يرزحون تحت نير العبودية البابلية.

لا نعلم بالضبط كيف تقارب الفرس مع اليهود إلا من خلال كتب العهد القديم، حيث تتحدث كتب العهد القديم كيف تنبأ أحد أنبيائهم لكورش الأخميني أنه سيكون إمبراطور الأرض منذ أن كان قائدًا لجيوش الميديين و مع تحقق النبؤة أراد كورش أن يرد المعروف لليهود، فرفع منزلتهم بشكل كبير في أرجاء الدولة الفارسية وردهم إلى بيت المقدس و أمر بإعادة بناء الهيكل السليماني بأفضل مما كان، ورد عليه كل كنوزه المسلوبة وزاده فازدهرت القومية اليهودية في عهده و عهد خلفائه و حكموا تقريبا منطقة بيت المقدس باسمه، وكانوا من خاصة مستشاريه (هذا سيفسر لحد كبير العلاقة الإيرانية اليهودية عبر العصور المتعاقبة).

فقد كان دعم إمبراطورية ضخمة بحجم الفرس في هذا الوقت للقومية اليهودية سببًا مباشرًا في علو شأنهم بشكل رهيب (تقريبا لم يحظ اليهود بفترة ازدهار مثلما حظوا بها في فترة حكم الأخمينيين) .

و انتشروا معهم في أرجاء الإمبراطورية في فارس و العراق و الشام و حتى حين نجح الفرس في الاستيلاء على مصر كانوا معهم في حلهم و ترحالهم و كانوا تقريبا متحكمين في مفاصل الدولة الفارسية.

(ربما يكون هذا هو السبب الذي دعاهم لذكر دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات في تلمودهم)

ولهذا نرى أن العلاقة الفارسية اليهودية لم تنقطع على الإطلاق منذ أقدم العصور حتى العصور الحديثة، حيث نمت شبه علاقة أبدية بين عبدة النار من الإخمينيين المجوس وبين اليهود الّذين طوعوا الشريعة الألهية فقط لما يخدم مصالحهم وتركوها بشكل كامل حين انقضت الحاجة منها.

فكانوا يحللون للفرس دمويتهم مع شعوب البلاد المفتوحة من مصر، و العراق، والشام انتقامًا لما أصابهم قديما على يد الفراعنة والكنعانيين و البابليين.

كان نظام الحكم فى فارس نظامًا طبقيًا صارما تنعزل فيه طبقة النبلاء، و الحكام، ورجال الكهنوت، وقادة الجيش عن عامة الشعب الّذين كانوا يُعتبرون من الرعاع والعبيد الّذين لا حق لهم فى شيء إلا خدمة الطبقة العليا وكسرى (الملك) من فوقهم حاكما مطلقا يرتقى عندهم فى بعض الأحيان إلى مرتبة الألوهية شأنه شأن ملوك بابل والعراق .

فكان الفرس يعتبرون ورثة للحضارات وليسوا صانع حقيقى لها، وكان أكبر إنجازاتهم فى فتوحاتهم العسكرية للبلاد وإذلال العباد.

فمع وفاة كورش توسع ابنه قمبيز إلى حدود مصر، ولكن كما ذكرنا كان معاملته لهم معاملة احتقار وليس معاملة تعايش، وهو ما خلق حالة اضطراب مستمر فى أرجاء الإمبراطورية بين الفرس وأهالى البلاد المفتوحة.

وكانت قوة الرمح الفارسى على وشك أن تلتقى بخصم قوى لها مع حلول عام 499 ق.م. عندما التقوا بعرق آرى آخر هم العرق الإغريقى .

****

نشأة المدن الإغريقية:

من نفس نسل القبائل الهندو-أوروبية التى خرج منهاالفرس و الميديين كان الوجود الإغريقى مشابه.

فقد استقرت قبائل الإغريق على شواطئ بحر إيجة و غرب هضبة الأناضول منشئين مدنًا على الجانبين الأوروبى و الآسيوى لهضبة الأناضول.

و شأن المدن الكنعانية الفينيقية كانت مدن الإغريق تعتمد اعتمادً شبه كامل على الحياة البحرية على سواحل بحر إيجة، فتعلموا ركوب البحر و اعتمدوا على الصيد و التجارة مع مدن فينيقيا.

وكان حب الإغريق للبحر و مهارتهم كبحارة دافع فى استكشافهم لجزر البحر المتوسط حيث استوطنوا جزر كريت، و قبرص، و رودس، و حولوها لمراكز لوجيستية تجارية بين مجتمعات مدنهم و المجتمعات الفينيقية و حتى مصر و العراق.

وكانت قسوة البيئة الجبلية وفقر الريف الإغريقى دافعا لتصادم مستمر بين المدن الإغريقية ودفع القبائل الإغريقية إلى الاهتمام بالمهارات القتالية المختلفة وبنيتهم البدنية من أجل تحقيق انتصارات على أعداء يفوقونهم قوةً وعددًا فى أى لحظة.

فكان الإغريق ساعين إلى تطوير قدرتهم وتوسعة مواردهم بأى شكل و استثمار كل مهاراتهم فى سبيل تحقيق موارد أكبر حتى وصل بهم الأمر إلى تأجير نفسهم للقتال فى جيوش الفراعنة والعراقيين كمرتزقة لمن يدفع أكثر.

ونتيجة تواجدهم مع هذه القوى وطأ الإغريق أرجلهم فى مناطق مختلفة من مصر والعراق وهضبة الأناضول كما ذكرنا سابقا وسمح لهم ذلك برفع مساحات للتبادل التجارى بين مدن الإغريق الأصلية والمجتمعات اللاجئة الجديدة فى بلاد مصر والعراق.

وحذت المدن الإغريقية حذو كافة المجتمعات فى ذلك الزمن من كونها مجتمعات وثنية وطبقية فيها النبلاء والرعاع، ولكن على عكس المجتمع العراقى والمصرى الزراعيين كانت المدن الإغريقية مجتمعات حرفية و تجارية بالإضافة بالطبع للمهارات الحربية الفردية العالية للشعب الإغريقى.

وكان من الطبيعى على الإمبراطورية الفارسية باعتبارها وريث لحضارتى مصر والعراق أن تؤجر الإغريق كمحاربين مرتزقة فى صفوف الجيش الفارسى، وكانت العلاقات بين الإمبراطورية الإخمينية والمدن الإغريقية على ما يرام حتى كان الصدام بين الطرفين فيما عُرف بالثورة الأيونية.

****

<u>الثورة الأيونية عام 499 ق.م:.</u>

فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد تمكنت الهجرات الإغريقية من السيطرة على مدينة ميليتوس فى آسيا الصغرى، وتأسيس مستعمرة قوية متحكمة فى طريق التجارة بين المدن الإغريقية والإمبراطورية الفارسية و الشام وكان هذا الازدهار دافعا لحاكم المدينة هيستيايوس عام 500 ق.م. أن يطمح فى توسعة نفوذه فى جزر بحر إيجة، ولكن الإمبراطور الفارسى داريوس الثانى احتجزه فى عاصمة الفرس ما حدا بالحاكم إلى الدعوة لإثارة القلاقل فى المدن الإغريقية فى محاولة للضغط على الإمبراطور الفارسى ليعيده لإعادة التهدئة فى المدن الأيونية.

نتج عن ذلك أن ثارت عدة مدن إغريقية على رأسها أثينا وطردوا الحاكم الفارسى العام وقتلوا أخاه.

فى نفس الوقت نظم أريستارجوس حاكم ميليتوس محاولات لإدخال كافة المدن الإغريقية فى الثورة ضد الوجود الفارسى فى بحر إيجة.

وتحرك الثوار نحو مدينة ساردیس واحتلوها وقبل الوصول إلى قلعتها شب بالمدينة حريق هائل أجبر الثوار على التقهقر إلى السواحل حيث كان الأسطول الفارسى بانتظارهم فهاجمهم وأوقع بهم الهزيمة.

نتج عن هذه الهزيمة انسحاب الأثينيون إلى غرب بحر إيجة، ولكن دارا الأول حملهم مسئولية احتراق ساردیس، فقاد بنفسه أسطولا مكونًا من ستمائة سفينة هاجمت الأسطول الإغريقى فى مرفأ لادا بمدينة ميليتوس وألحقت به هزيمة ساحقة ثم تبعت المشاة إلى داخل المدينة وخربتها تخريبًا تامًا وذبحت أهلها.

وأعلن بعدها الإمبراطور الفارسى دارا عزمه إخضاع مدن الإغريق وعلى رأسها أثينا لمنعهم من منح أى تمويل لإغريق الغرب فى آسيا الصغرى.

نتج عن هذا القرار سلسلة من المعارك بين المدن الإغريقية الصغيرة والإمبراطورية الفارسية الضخمة على مدار ما يقرب من ثلاثين عامًا، من أشهر معاركها ماراثون عام 490 ق.م. بين أثينا والفرس، وانتصرت فيها أثينا، ثم معركة ثيرموبلاى الشهيرة عام 481 ق.م. بين ثلاثمئة مقاتل إسبرطى وأكثر من مائتى ألف مقاتل فارسى، والتى انتهت بهزيمة

الإسبرطيين و اكتساح الفرس للمدن الإغريقية بريا حتى وصلوا إلى أثينا و أحرقوها، و مع ذلك تمكن الأسطول الأثيني بقيادة تميستوكلس في تحقيق نصر على الأسطول الفارسي في سلاميناء عام 480 ق.م. فأدى ذلك إلى تقهقر الفرس نظرا لانقطاع المؤن عنهم.

بعد هذه المعركة تنبه الإغريق إلى أهمية تكوين اتحاد كونفيدرالي لمواجهة الغزو الفارسي، فأنشأ الإغريق ما يعرف بالاتحاد الديلي عام 478 ق.م. و ضم أكثر من مائة و سبعين مدينة بهدف التحكم في ممرات بحر إيجة، و نجحوا في عام 468 ق.م. من تحقيق نصر بحري حاسم على الفرس، و تم عقد الصلح بينهم على أن تمتنع سفن الفرس من نزول البحر المتوسط مرة أخرى فصارت بذلك الزعامة في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الإغريق.

كان هذا التحالف هو أول تحالف أوروبي ضد الشرق في التاريخ، ولكنه كان تحالفًا دفاعيًا في الأساس انتهت مهمته بانقضاء الحاجة إليه مع اندحار الفرس و تأمين الممرات التجارية في البحر المتوسط.

كان من نتائج هذه الحرب وضع حد للتوسع الفارسي في المنطقة، و أنهكت الحروب المتواصلة الإمبراطورية، و مهدت لسقوطها بعد ذلك عقب قرن من الزمان.

كان من الطبيعى بعد انتهاءالتحالف أن تعود المنافسة على الزعامة بين المدن الإغريقية على أشد ما كان حتى قبل الغزو الفارسى، فدارت رحى حرب طاحنة بين فريقين من المدن الإغريقية، فريق بقيادة أثينا و الآخر بقيادة إسبرطة فيما عرف بالحرب البيلوبونزية و التى استمرت ما يقرب من ثلاثين عامًا أخرى و ظلت سجالا بين الفريقين و أدت إلى إضعاف المدن الإغريقية بالكامل.

حاول مجموعة من عقلاء فلاسفة الإغريق إثناء كل الفرق اليونانية عن الحرب الأهلية، و توحيد جهودهم لحماية اليونان من أى محاولة فارسية مستقبلية لغزو اليونان، و لكن نزعة الفردية المطلقة أبت إلا أن تتحكم فى مجريات الأمور.

و لكن مدينة واحدة استجابت لفكرة التوحيد و هو إقليم مقدونيا بقيادة فيليب المقدونى الذى استطاع تكوين جيشًا قويًا هزم به المدن اليونانية الأخرى فى موقعة خايرونيا عام 338 ق.م.

****

<u>الإسكندر المقدونى فاتح العالم:</u>

مع حلول عام 336 ق.م. ارتقى العرش المقدونى رجل ابتلع حضارات العالم القديم قاطبة فى عشر سنوات واضعًا أمام عينيه الفتك بكل ما هو فارسى فى أى بقعة من العالم.

كان هذا الرجل هو الإسكندر المقدونى الذى تولى عرش اليونان بعد مؤامرة لاغتيال أبيه (يقال أنه كان مشتركا فيها مع والدته و آخرين بهدف تمكينه من العرش).

مع ارتقائه لسدة الحكم و هو فى عمر الثالثة و العشرين، فقط عادت المدن اليونانية للثورة مرة أخرى ظنا منها القدرة على العودة للفردية مرة أخرى، ولكن الشاب المفعم بطموح لا حد له و مؤهلات القائد العسكرى الفذ نجح فى إخماد كافة الثورات بسرعة متناهية ووحد المدن الإغريقية كلها فى عباءة واحدة تحت هدف واحد هو القضاء على إمبراطورية الفرس الأخمينية قضاءً مبرمًا لا تقوم بعدها لهم قائمة.

كون القائد المقدونى الشاب جيشًا مدربًا صاهرًا المهارات القتالية الفردية لكل مقاتل فى نظام عسكرى صارم وتحرك به من اليونان قاصدا آسيا الصغرى حيث انتزع المستعمرات الإغريقية القديمة من تحت سيطرة الفرس.

اندفعت الجيوش الإغريقية محطمة الوجود الفارسى فى كل منطقة تحت سيطرتها بهدف حصر الفرس فى مركز واحد ثم ضربهم ضربة قاصمة واحدة.

فكان الزحف الإغريقى فى البداية على بلاد الشام حيث الأصدقاء المقربين للفرس وهى القومية اليهودية، ولم يذكر التاريخ أن دارت أى معركة تُذكر بين الإغريق واليهود فمع اندحار الفرس فى آسيا الصغرى كان الطريق مفتوحا فى الشام، فاستولى على بيت المقدس بسهولة بل وعبرها إلى مصر حيث دخلها عام 332 ق.م.

وقد كان الإسكندر مثالا للتاجر الماهر فهو على استعداد لفعل أى شيء من أجل الوصول إلى مآربه فقد رفع راية حامى الحضارة فى وجه الهمجية الفارسية، وكما ادعت والدته أنها حملت به من علاقة مع زيوس لمنحه شرعية إلهية فى بلاد اليونان، ادعى الإسكندر أنه ابن لإله الفراعنة آمون (لاحظ هنا أن الإسكندر وضع يده على الشيفرة السرية لحكم المصريين التى ذكرناها سابقا) فنظم رحلة مخصوصة لمعبد آمون فى واحة سيوة حيث حصل على لقب ابن آمون من كهنة المعبد هناك، وعمل على جعل الثقافة الإغريقية ثقافة عالمية مشتركة فى كل البلاد التى فتحها.
تقدم الأسكندر بعد ذلك للعراق حيث انتزعها من الفرس واقتحم بابل و جعلها مركزًا لعملياته العسكرية ضد باقى الإمبراطورية الفارسية.

ولم يكتفِ الإسكندر بدحر الفرس فى المستعمرات، ولكنه تقدم إلى قلب بلادهم فى إيران حيث دارت بينه وبين داريوش الثالث معركة كوكميلا الفاصلة عام 331 ق.م. التى انتهت بهزيمة ساحقة للجيش الفارسى الذى

خسر ما يقرب من أربعين ألف جنديًا و هرب داريوش الثالث من المعركة لتنتهى من الوجود دولة فارس الأخمينية و ينكسر الرمح الفارسى أمام الرمح الإغريقى.

مع انتهاء الدولة الفارسية انقضى الهدف الذى من أجله وحد الإسكندر جيوش الإغريق و بدأت بوادر التمرد و التذمر و الرغبة الانفصالية مرة ثانية تدب فى وسط الجنود الإغريق.

و فى نفس الوقت أدارت الانتصارات المتتالية للإسكندر الذى ابتلع بلاد الإغريق و الشام و العراق و مصر و فارس و أصبح هو الحاكم الأقوى فى العالم القديم، فرفع نفسه من مرتبة حامى الحضارة إلى الإله المقدس المنتصر دائمًا، فرفع نفسه إلى مرتبة الملك الإله فساءت أخلاقه ما زاد من حالة التذمر فى صفوف قادته و جنوده و زاد طمعه إلى التوسع إلى ما وراء نهر السند حيث الهند و الصين، و لكن التمرد الذى سري فى جيشه أجبره على العودة إلى بابل و لم يطل به المقام كثيرًا حتى وافته حمى غامضة فى بابل أدت إلى وفاته عام 323 ق.م. لتنتهى معها أسطورته.

كانت محاولة الإسكندر لفتح العالم القديم أكبر محاولة لدمج التجمع البشرى فى التاريخ القديم، حيث بلغت مساحة دولته مايزيد عن خمسة ملايين كم مربع و ضمت أربع أو خمس حضارات

مختلفة و جعل من الثقافة الهلينستية (مزيج بين ثقافة اليونان و ثقافات البلاد المفتوحة) ثقافة عالمية.

ورث إمبراطورية الإسكندر قادته الثلاثة بطليموس و سليقوس و أنتيجونس أقسام إمبراطورية الإسكندر بعد حروب أعقبت إتفاقية قسمة بابل عام 323 ق.م. التى وقعت لتوزيع الممالك على قواد الإسكندر الذى لم يترك وريثًا.

فأخذ بطليموس مصر، و أسس فيها الحكم البطلمى الذى استمر قرابة ثلاثة قرون بينما حصل سليقوس على الجزء الأكبر من الإمبراطورية و التى خسرها بعد ذلك سريعًا لحساب قبائل فارسية أخرى عرفت بالأشكانيين و الّذين أسسوا الإمبراطورية الفارسية الثانية عام 247 ق.م.

و أما أنتيغونس فقد اكتفى بحكم مقدونيا و بلاد اليونان فقط، و استمر حكمه مدة قرن من الزمان.

كان الصراع الفارسى-الإغريقى حلقة طويلة و مستمرة من الصراع أدى إلى حروب و فوضى شاملة فى المنطقة على مدار ثلاثة قرون وكان مثلث الفوضى كالآتى:

-الهدف: بدأ الهدف كالعادة متمثلا فى رغبة جامحة فى السيطرة على الموارد بين إحدى القوتين، و تطور الأمر إلى هدف شامل فى السيطرة على المقدرات

الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية للعالم القديم و زرع أول بذور ثقافة العولمة فى العالم القديم.

-المستفيد: مثل الهدف كان المستفيد فى البداية هى النخبة الحاكمة من الفرس، ثم المدن الإغريقية الطموحة، ثم تطور الأمر ليصبح المستفيد هو رجل لعبت فى رأسه فكرة السيطرة على العالم و احتواءه كله فى ممتلكاته لمجد شخصى محض.

-الخطأ: برزت فى هذه المرحلة من الصراع فكرة الفوضى المفتعلة، فمع عدو لا تملك له سببًا واضحًا لإشعال الصراع معه كانت عمليات التربص من الفرس على سبيل المثال حين بعث لليونانيين رسولا يطلب منهم الأرض و الماء و هو عالم أنه سيستفزهم للدخول ضده فى معارك غير متكافئة، و لكنه غفل عن قدرة الإغريق على التوحد و تأسيس قوة استطاعت بعد ذلك كسر الفرس و إزاحتهم من الوجود.

برزت كذلك ضعف مبدأ الوحدة و التعاون بين الإغريق حتى بعد تحقيقهم لإمبراطورية مترامية الأطراف فلم يلبث أن مات مؤسسها الإسكندر حتى ارتدوا متقاتلين مرة أخرى و ظلوا فى صراع و قتال طيلة ثلاثة قرون و هم غافلين عن القوى الجديدة التى نشأت فى الشرق و الغرب و خاصة فى غرب البحر الأبيض المتوسط مع ظهور القوة الرومانية و ما قامت به من تأثير فى مجريات التاريخ بعد ذلك فى العصور الوسطى و الحديثة.

إنها فوضى أنهكت قوتين و أكلتهما سريعًا.

(و تلك الأيام نداولها بين الناس) صدق الله العظيم. (آل عمران، 140)

الإمبراطورية الرومانية: الفيالق حل لكل مشكلة

نشأة و صدام:

كان القرن العاشر قبل الميلاد بداية ظهور العديد من القوى و تصادمها فى منطقة شرق حوض البحر الأبيض المتوسط.

فمن صدام بين مصر و العراق و بين بلاد كنعان و مملكة بنى إسرائيل ثم الصدام بين الفرس و الإغريق كانت منطقة شرق حوض البحر الأبيض المتوسط بؤرة مشتعلة بالمعارك و الحروب.

ولكن على الجانب الآخر فى غرب حوض البحر الأبيض المتوسط كانت مجموعة أخرى من القبائل الآرية تتجمع فى سهول شبه الجزيرة الإيطالية مكونة تجمعات مدنية جديدة للإنسان.

على ضفاف نهر التيبر و فى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد تجمعت ثلاث قبائل هى الرومانيس، اللوساريس و التيتيس مكونة ما عرف بمملكة مدينة روما.

كان موقع المدينة الاستراتيجى كمفترق طرق للممرات التجارية دافعًا لازدهار المدينة سريعًا و بناء مشاريع عمرانية كبيرة حولها لمستعمرة بشرية لا بأس بها.

استمرت الملكية الرومانية القديمة ما يقرب من ثلاثة قرون حتى عام 509 ق.م. حين تم عزل آخر ملوك روما السبعة و تأسيس أول نظام جمهورى فى التاريخ.

كان النظام الجمهورى الرومانى قائمًا على تقييد سلطة الحكام عن طريق عدم السماح لشخص واحد بالانفراد بالحكم و تنظيم المعاملات داخل المدينة عن طريق مجموعة من الهيئات التنظيمية، مثل القضاة و مجلس الشيوخ (الذى كان مكون أساسا من طبقة من النبلاء الأثرياء الباتريكيان من كبار ملاك الأراضى) ثم القناصل الّذين كانوا بمثابة رئيس الجمهورية.

لم تكن الجمهورية الرومانية هى القوة الوحيدة فى شبه الجزيرة الإيطالية، فمنذ عام 1100 ق.م. كانت هناك قوة أخرى نامية فى شمال إيطاليا عُرفت بالحضارة الأتروسكانية، و التى كانت قائمة على التعدين و تجارة المعادن كما كان هناك العديد من المدن الإغريقية فى الجنوب الإيطالى.

مع ازدهارالتجمعات الأتروسكانية فى المنطقة الإيطالية الشمالية بدأ الزحف الأتروسكانى يتوسع إلى المناطق الجنوبية الإيطالية و التى كانت تشهد كثافة سكانية إغريقية فى ذلك الوقت.

و بالتالى وكنتيجة الرغبة فى السيطرة على الموارد بدأت صدامات مع هذه المستعمرات الإغريقية من أجل السيطرة التجارية فى غرب البحر المتوسط.

سعت الجمهورية الرومانية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد فى بسط سيطرتها على المدن اللاتينية المنافسة فى الجنوب الإيطالى و بنهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الجمهورية الرومانية قد أحكمت سيطرتها على كافة المدن اللاتينية و الأتروسكانية المحيطة بها.

الحرب الغالية الرومانية الأولى :

فى عام 390 ق.م. تعرضت شبه الجزيرة الإيطالية لهجوم مكثف من القبائل الغالية (الفرنسيين القدماء) بهدف التمدد فى الأرض (كالعادة للسيطرة على مزيد من الموارد) و التقى الغاليون مع الرومان فى معركة نهر أليا، ونتج عنها هزيمة ساحقة للرومان و سقطت روما نفسها ضحية للحرق و النهب و التدمير عام 387 ق.م. ولكن الرومان الّذين تعودوا على القتال استطاعوا استعادة السيطرة على روما عام 386 ق.م. و طرد

الغاليين من إيطاليا بالكامل (كانت هذه المعركة هى بداية صراع رومانى-غالى استمر لما ما يقرب من قرنين من الزمان)

كان إحكام سيطرة روما على المدن الإيطالية وتوحيدها تحت زعامتها إعلانا لظهورها كقوة إقليمية جديدة فى المنطقة.

ولكن النظام الرومانى كان على موعد مع أسوأ كابوس شهدته روما فى بدايتها كان مهددا لبقاء الجنس الرومانى بأكمله.

****

<u>الصراع الرومانى-القرطاجى:</u>

ترجع بدايات الصراع الرومانى القرطاجى لفترة الحضارة الأستروكانية فى إيطاليا.

فعلى الجانب الآخر من حوض البحر المتوسط فى الشمال الإفريقى نزحت مجموعات من القبائل الفينيقية السامية من مدينة صور إلى المنطقة التى تشكل المغرب العربى حاليا واستوطنتها مؤسسة مستعمرة قرطاجة الفينيقية، وقد نمت موارد المستعمرة بشكل كبير مع ازدهار تجارتها مع المدن الفينيقية الأم ومصر بالإضافة إلى تعمقها فى التعامل بعض المدن الإفريقية فى الجنوب، وفى خلال قرن من الزمان كانت قرطاجة قد أصبحت أكبر قوة فى منطقة غرب حوض البحر المتوسط تمتلك

obeikandl.com

أسطولًا تجاريًا كبيرًا و صاحب هذا الأسطول أسطولًا حربيًا كبيرًا مؤلفا من 350 سفينة حربية كبيرة على الأقل.

و مع نمو المدن الإغريقية فى الجنوب الإيطالى بدأت معركة السيطرة على جزر صقلية و سردينيا و كورسيكا من أجل تأمين مراكز لوجستية لطرق التجارة فى البحر المتوسط.

استعانت المدن الإغريقية الإيطالية بحلفائها فى اليونان لمواجهة المد القرطاجى، فكانت النتيجة أن تحالف القرطاجيين مع الأتروسكان و اشتبكوا مع مدن الجنوب الإيطالى فى معركة ألاليا عام 540 ق.م.

لم تحسم المعركة نتيجة الصراع، ولكن كان للقرطاجيين اليد العليا حتى هذه اللحظة.

كانت إحدى مدن التحالف الجنوبى الإيطالى هى الجمهورية الرومانية و التى شاركت بقواتها ضد القوات الأتروسكانية فى معركة ألاليا.

بعد معركة ألاليا بدأ التحالف الجنوبى (الذى عُرف بتحالف ماجنا كريشا) بقيادة مستعمرة سيراكيوزا بمهاجمة الأستروكان حلفاء القرطاجيين بغرض تأمين ظهورهم و ظلت المعارك سجالًا بين الطرفين ما أنهكت قوى الطرفين و مهدت لسقوطهم جميعا تحت سيطرة القوة الرومانية الناشئة التى تمكنت من احتلال باقى المدن الإيطالية .

كان من الطبيعى بعد نجاح روما فى بسط سيطرتها على المدن الرومانية أن تلتفت إلى المارد القرطاجى الذى يعيق التمدد الرومانى فى جزر غرب البحر المتوسط.

كانت النتيجة سلسلة من الحروب الدموية عُرفت بالحروب البونيقية.

الحرب البونيقية الأولى (288 ق.م.-241 ق.م):

بدأت الحرب البونيقية الأولى كنتيجة للنزاع بين روما وقرطاجة حول السيطرة على جزيرة صقلية.

بدأ النزاع بوفاة حاكم صقلية عام 288 ق.م. ونتيجة لفقد عدد من المرتزقة الإيطاليين فى جيشه عملهم أسسوا منظمة عرفت بالمامريتيين (يعنى تابعى إله الحرب مارس) وسيطروا على مدينة ميسينا، وأرسلوا إلى كل من روما وقرطاج يطلبون معونتهم ضد مستعمرة سيراكوزا الإغريقية.

وبينما تلكأ الرومان فى إجابة طلبهم سارع القرطاجيون إلى إرسال جيش إلى ميسينا.

ولكن حدث أن اتفق القرطاجيين مع سيراكوزا، فأصبح المامريتيين فى مأزق فراسلوا روما طالبين مساعدتهم لإخراج قرطاجة من صقلية.

رأى الرومان وجود جيش قرطاج فى ميسينا تهديد مباشر لحدودها الجنوبية فسارعوا إلى إرسال جيش إلى ميسينا عام 263 ق.م. ولكن الجيش تعرض للهزيمة.

أرسلت روما على إثر ذلك جيش ثان نجح فى السيطرة على بعض المدن الصقلية فرأت روما فى ذلك فرصة للسيطرة على صقلية بشكل كامل.

لم تكن روما فى ذلك الوقت تملك قوة بحرية فشرعت فى بناء قوة بحرية لمجابهة القوة البحرية المرعبة لقرطاجة و من أجل مجابهة التفوق العددى للسفن القرطاجية ابتكر الرومان سلاحًا بحريًا جديدًا سموه كروفوس أو الغراب و الهدف منه ربط السفن بعضها إلى بعض

لتحويلها من معركة بحرية إلى حرب برية و نجحوا بذلك فى تحقيق نصر بحرى عليهم عام 255 ق.م.

ثم طور الرومان هجومهم على قرطاج متحالفين مع نوميديا (مملكة الجزائر الأمازيغية القديمة) ولكن الهجوم فشل و شن معه القرطاجيون هجومًا مضادًا على صقلية وكانوا قاب قوسين من النصر، ولكن مع تقديرهم الخاطئ أرسلوا معظم سفنهم إلى نوميديا للقضاء عليها عام 247 ق.م. فنجح الرومان فى قلب الدفة عليهم و دمروا الأسطول القرطاجى بعد أن تمكنوا من بناء أسطول رومانى جديد فاضطرت قرطاج فى النهاية

لتسليم صقلية إلى روما وانتهت سيطرتها البحرية على البحر المتوسط عام 241 ق.م..

دفعت قرطاج على إثر هذه الحرب تعويضات مالية ضخمة لروما ما تسبب فى حروب داخلية قوية بين مرتزقة جيش قرطاج بمساعدة نوميديا من ناحية وبين جيش قرطاج نفسه من ناحية أخرى، امتدت من عام 241 ق.م حتى عام 236 ق.م انتهت بانتصار قرطاج بقيادة حملقار برقة والذى تمكن من التقدم حتى عبر أسبانيا وقاتل فيها حتى مات عام 228 ق.م. وخلفه شقيقه عزربال برقة وفتحها وضمها إلى قرطاج، ولكنه توقف عند نهر الإيبيرو وتعهد للرومان بعدم اجتيازه(لاحظ هنا أن أسبانيا منذ القدم كانت خليط من عرق آرى أمازيغى سامى).

عمقت هذه المعارك الحقد بين الرومان والقرطاجيين، وظهر ذلك جليا فى وصية حملقار لولده هانيبال بألا يهدأ حتى يكسر الرومان إلى الأبد. وعلى هذا الحقد أثار هانيبال الحرب البونيقية الثانية.

<u>الحرب البونيقية الثانية (218ق.م.-201 ق.م.):</u>

فى عام 218 ق.م. كان الرومان على موعد مع أسوأ كابوس لهم وهى مواجهتهم مع القائد القرطاجى المرعب هانيبال، الذى شكل جيشًا مؤلفا من خمسين ألف مقاتل من القرطاجيين والنوميديين والقبائل الأسبانية

و الإيطالية، بالإضافة إلى أربعين فيلا و زحف به سريعًا من أسبانيا مجتازًا جبال الألب بهدف ضرب روما فى قلب تحصيناتها و القضاء عليها إلى الأبد.

نجح هنيبال فى تحقيق انتصارات مدوية على الجيوش الرومانية فى أوروبا الغربية، وكان ذروة انتصاراته فى موقعة كانييه، عندما استطاع بعبقريته الحربية الفذة من نصب كمين للجيوش الرومانية، و أباد فى يوم واحد جيشًا رومانيًا كاملًا قوامه سبعين ألف جندى بالإضافة لقتله قنصلين رومانيين.

شكلت هذه المعركة نقطة تحول فاصلة إذ أصبح الطريق مفتوحًا من شمال إيطاليا إلى قلب روما، ولكن لأن المعارك كانت منهكة أيضا لجيش هانيبال فقد رأى أن ينتظر إمدادات أخيه من أسبانيا، ولكن هذه الإمدادات لم تصل أبدا حيث نجح الرومان فى القضاء على أخيه ووجهوا قواتهم بقيادة سيبيو أفريكانوس إلى قرطاجة نفسها بعد نجاحهم فى التحالف مع ميسينيسا ملك النوميديين.

أدى هذا التطور المفاجئ فى سير المعارك إلى تقهقر هانيبال سريعًا إلى قرطاجة لحمايتها من الرومان، ولكن يبدو أن حظه الحسن قد نفد حيث تعرضت قواته لهزيمة منكرة أمام التحالف الرومانى النوميدى فى موقعة زاما عام 202 ق.م .

كانت هذه المعركة هى نهاية المارد القرطاجى اذى ظل الرومان يخشونه لعقود طويلة و انتهت حياة هانيبال بعد أن ظل هاربا من الرومان لفترات طويلة حتى مات منتحرًا عام 182 ق.م. فى هضبة الأناضول. و بذلك انتهت الحرب البونيقية الثانية التى فرضت على قرطاج عدم شن أى حرب ولا حتى للدفاع عن نفسها إلا بإذن روما.

الحرب البونيقية الثالثة :

عقب الهزيمة الساحقة لقرطاجة قامت المملكة النوميدية بالاستيلاء على جزء كبير من أملاك قرطاجة الأفريقية ما حدا بالقرطاجيين لإعلان الحرب على نوميديا حليفة الرومان، فما كان من روما إلا أن حاصرت قرطاجة و دمرتها تمامًا و أزالتها من الوجود، و أعقب ذلك سريعًا قضاء روما على حلفائها النوميديين لتصبح روما هى القوة المسيطرة الوحيدة فى غرب البحر الأبيض المتوسط.

التوسع الرومانى فى بلاد الإغريق:

أدت الانتصارات التى حققتها الفيالق الرومانية فى الغرب إلى فتح شهيتهم لتوسيع حدودهم الإمبراطورية إلى الشرق الأوروبى، حيث استطاعت الفيالق الرومانية من التوغل سريعًا إلى داخل المملكة المقدونية و إسقاطها مع سيطرتهم على كامل جزر البحر الأبيض المتوسط

لتصبح روما هى القوة الأكبر فى البحر المتوسط، ويليها الأسطول البطلمى المصرى.

فترة الاضطرابات الداخلية (160ق.م.-70 ق.م.):

كان النظام الرومانى الجمهورى على الرغم من كونه لا يعتمد على التأليه و لا تقديس شخص بعينه إلا أنه كان طبقيًا متطرفًا بشدة، حيث كان هناك طبقة النبلاء من كبار ملاك الأراضى كما ذكرنا سابقا، كما ظهرت طبقة قواد الجيش الّذين حققوا الكثير من الانتصارات ما أهلهم للمطالبة بالكثير من المناصب، و أهمها منصب القنصل بمباركة مجلس الشيوخ الطبقى

كما كانت روما تتعامل مع مستعمراتها بمعايير مزدوجة، ففى الوقت الذى كانت روما و سكانها من كافة الطبقات (حتى ممن كانوا من غير طبقة النبلاء) يملكون امتيازات خاصة و أهمها قدرتهم على التصويت، انتخاب النواب و المطالبة بأنواع مختلفة من الحقوق، بل وكان منهم من يستطيع التطلع للوصول لطبقة النبلاء، كان سكان المستعمرات من غير الرومانيين لا يملكون مثل هذه الرفاهية حيث كانت العديد من المستعمرات حتى من قلب المدن الإيطالية يعاملون معاملة غاية فى السوء.

وكانت غالبية المدن المستعمرة هى مناطق لتوريد كافة أنواع المواد الخام، و أهم من ذلك العمالة الرخيصة التى كانت تتألف من العبيد.

ونتيجة للمعاملة السيئة للعبيد اندلعت العديد من انتفاضات العبيد فى صقلية والمدن الإيطالية، بل وروما نفسها متمثلة فى ما عُرف بحروب العبيد الرومانية فى أعوام 135، 104 و73 ق.م.

وكانت أخطرها على الإطلاق هى انتفاضة عام 73 ق.م. التى عُرفت بحرب العبيد الثالثة بقيادة سبارتكوس والتى كادت تقضى على روما نفسها لولا فيالق كراسوس وبومبى الّذين تمكنا من القضاء على الثورة بقسوة.

كانت الانتصارات التى حققها القائدين السابقين فى أنحاء روما بالإضافة للقائد الثالث يوليوس قيصر دافعًا لنوع جديد من التمردات داخل الإمبراطورية الرومانية.

التحالف الثلاثى:

مع انتهاء ثورات العبيد كان هناك ثلاثة قادة يسيطرون على الفيالق الرومانية فى أنحاء الجمهورية هما كراسوس، بومبى، ويوليوس قيصر و نتيجة لقوة الجنرالات الثلاثة اتفقوا على تكوين نوع من السلطة الموازية لسلطة مجلس الشيوخ (السلطة الأقوى فى ذلك الوقت) فكونوا ما يُعرف بالحكومة الثلاثية عام 60 ق.م.

كان كراسوس هو الضلع الأقدم فى التحالف وتلاه بومبى، بينما كان يوليوس قيصر الشاب هو القائد الفاتح الذى يحاول توسيع نفوذ روما فى العالم.

كان بومبى وكراسوس على خلافات دائمة منذ أن نسب بومبى لنفسه فضل القضاء على ثورة العبيد بدلًا من كراسوس. وكان هذا مدعاة للتصدع فى الحكومة بينما كان يوليوس قيصر بعيدًا عن تلك المنافسات يحقق انتصارات مدوية فى أسبانيا، وبلاد الغال وحتى الجزر البريطانية، حيث تم تعيينه حاكمًا عامًا على أسبانيا ثم بلاد الغال عام 54 ق.م.

ومع مقتل كراسوس عام 52 ق.م. عقب صدامه مع الفرس الأشكانيين طالب بومبى تعيينه قنصلًا وحيدًا بدعم من مجلس الشيوخ، ومن أجل الحد من نفوذ قيصر الآخذ فى الزيادة بعد انتصاراته.

تسبب هذا السلوك فى قيام حرب أهلية بين قيصر وبومبى على مدار عشر سنوات انتهت بهزيمة بومبى ومقتله ليصبح قيصر أقوى رجل فى العالم القديم.

التوسع الرومانى فى الشرق:

كان الشرق القديم فى ذلك الوقت يرزح تحت وطأة نزاعات بين البطالمة و السلوقيين على بلاد الشام.

وكانت الدولة البطلمية فى ذلك الوقت تسعى لمناصرة روما القوة الأكبر فى البحر المتوسط، فحاولوا التقرب منها عن طريق إمداد روما باحتياجتها من القمح والغذاء (وهو ما عزز من رغبة روما فى بسط السيطرة عليها) كما حاولوا التقرب زيادة عن طريق أسر القائد بومبى وإرسال رأسه ليوليوس قيصر حين كان فى زيارة لمصر.

استغل الرومان النزاع وأسقطوا دولة السلوقيين فى سوريا، ولم يبقَ من دول الشرق القديم إلا مصر البطلمية التى كانت تعانى من العديد من الاضطرابات الداخلية وخاصة النزاع بين كليوباترا وأخيها بطليموس، والذى دعمها فيه يوليوس قيصر الذى سقط فى حبائل إغوائها وتزوجها قبل عودته إلى روما.

اغتيال قيصر:

مع تعاظم قوة قيصر ومطالبته لمجلس الشيوخ بتوليه الحكم منفردًا كان هذا يمثل تهديدًا مباشرا لسلطة مجلس الشيوخ، فعزموا على اغتياله والذى تم بالفعل فى عام 44 ق.م. صبيحة اليوم الذى كان مقررًا فيه تنصيبه كإمبراطور أوحد للإمبراطورية الرومانية، وتم هذا على سلالم مبنى مجلس الشيوخ.

أعقب ذلك نزاع داخلى بين ماركوس أنطونيوس وأوكتافيوس فى إعادة لتاريخ الصراع بين بومبى وقيصر، والذى انتهى بنصر الأسطول الرومانى

على الأسطول البطلمى فى أكتيوم عام 32 ق.م. ليصبح بعدها البحر المتوسط بحيرة رومانية صرفة.

كانت الفوضى التى صاحبت الصعود الرومانى فوضى مصالح صرفة، تهدف لتحقيق أكبر قدر من المكاسب فكانت فوضى من النوع التقليدى تكون فيها نخبتها الحاكمة هى المستفيد مستغلة القبضة العسكرية القوية للفيالق الرومانية، فكان التعامل الأمنى الغاشم هو الحل لكل انتفاضة ضد الحكم الاستبدادى الرومانى.

وكان الخطأ لدى كل خصوم الرومان هو عدم وجود وحدة وتنظيم لدى الخصوم فى مقابل تصميم وتنظيم صارم للعسكرية الرومانية.

ولكن مع حلول بداية العصور الوسطى كانت الإمبراطورية الرومانية على موعد مع نوع جديد من الصدامات، كانت من الشدة بحيث اقتلعت قوتها الإمبراطورية من جذورها.

<u>تتمة</u>

كان العصر القديم هو عصر تشكل المدنيات البشرية المختلفة وأعراقها المتعددة، وكان الصدام بين هذه الأعراق وما نتج عن هذه الصدامات بمثابة نثر بذور العداوة التى اعتمدت عليها قوى الفوضى التالية فى تأجيج الصراعات المختلفة.

(وَأَطِيعُوا اللَّه وَرَسُوله وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ) صدق الله العظيم (الأنفال، 46).